ديك الجن

رئيف خوري

دار الساقي

صدر للمؤلف

امرؤ القيس: نقد وتحليل، دار صادر، بيروت ١٩٣٤.
ثورة بيدبا، مسرحية شعرية، مكتبة روضة الفنون، بيروت ١٩٣٤.
حبة الرمان، مجموعة قصصية، المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٣٥.
جهاد فلسطين، دمشق ١٩٣٦.
حقوق الإنسان، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨.
مجوسي في الجنّة، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٣٨، الطبعة الثانية ١٩٤٩.
وهل يخفى القمر، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٣٩، الطبعة الثانية ١٩٤٩.
النقد والدراسة الأدبية، الطبعة الأولى، دار المكشوف، بيروت ١٩٣٩، الطبعة الخامسة، دار الساقي ٢٠١٣.
معالم الوعي القومي، دار المكشوف، بيروت ١٩٤١.
مع العرب في التاريخ والأسطورة، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٢، الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣.
الفكر العربي الحديث، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٣، الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣.
صحون ملوّنة، تمثيليات نثرية قصيرة، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٧.
الثورة الروسية: قصّة مولد حضارة جديدة، دار القارئ العربي، بيروت ١٩٤٨.
ديك الجنّ – الحب المفترس، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٨، الطبعة الثانية، دار الساقي ٢٠١٤.
أمين الريحاني وحقيقة الديموقراطية الأميركية، دار القارئ العربي، بيروت ١٩٤٨.
الطغاة، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٩.
الحب أقوى: رواية تاريخية من العصر الأموي، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٠، الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣.
التعريف في الأدب العربي، جزءان، لجنة التأليف المدرسي، بيروت ١٩٥٠.
نصوص التعريف في الأدب العربي، لجنة التأليف المدرسي، بيروت ١٩٥٧.
الأدب المسؤول، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

خطوط العناوين: حمدي طبارة – تصميم الغلاف: سحر مغنية

رئيف خوري

ديك الجن

الحبّ المفترس

مقدّمة جديدة بقلم
ملكه خوري خياط

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، دار المكشوف 1948
الطبعة الثانية، دار الساقي 2014

ISBN 978-6-14425-776-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مقدمة

ملكه خوري خيّاط

بمناسبة مرور مئة عام على مولد رئيف خوري كاتب رواية **ديك الجن** نعيد تقديم هذه التراجيديا الشكسبيرية الطابع وبطلها ديك الجن، الشاعر العربي ذو الأصول الفارسية، لما تقدمه من أطباق ملوّنة تتكون من مشاعر تختلج بها النفس البشرية وتسيطر عليها وعلى مصائر أصحابها من مثل مشاعر الغيرة والحسد والحقد والندم، وتبيّن كيف أن هذا البشري كائنٌ مركب تمتزج فيه عواطف نبيلة بمَيْلٍ قد يكون شبه فطري إلى العنف. رواية **ديك الجن** تقدم نماذج واقعية من الخير والشر متمثلة في الشخصيات الأساسية والثانوية في القصة. فإلى جانب بطل القصة الدرامي الذي يخبئ له القدر مصيراً يليق بأبطال التراجيديا اليونانية هناك نموذج الأم الحكيمة والحنون في جدّة ديك الجن ونموذج القريب الحسود في أبي الطيب، إلى جانب ياسر ودلال وورد وبكر، وكلها نماذج موجودة في كل زمان ومكان وقد نكون التقينا بعضها يوماً واختلطنا بأمثالها أحياناً.

ها هو رئيف خوري ينهل مرةً أخرى من مَعين التاريخ العربي ليعالج مواضيع أزلية أبدية لطالما كانت موضوع معالجة في الأدب الكلاسيكي العالمي. فالمثلث الدرامي في مأساة ديك الجن، المؤلف منه ومن ورد حبيبته وزوجته ومن بدر نديمه ومولاه، يجد له صدى في مسرحية **عُطيل** ومثلث عطيل وديدمونة وكاسيو، والغيرة العمياء الناجمة عن حب متقد، التي دفعت بعطيل إلى قتل ديدمونة، هي نفسها التي دفعت بديك الجن للتضحية بورد وبكر. وفي حين أن رئيف خوري يحرص على أن تنبع روايته من بيئتها العربية الخاصة، نجد أن هذه المأساة التي نبتت في أرض حمص تتخطّى خصوصية بيئتها لتنطق، ولو بشكل غير مباشر، عن أمكنة وأزمنة أخرى حيث أن المشاعر البشرية الإنسانية من حب وغيرة وطمع وحسد وانتقام هي نفسها. فتتخطى رواية **ديك الجن** بذلك حدود المكان والزمان لتصبح قصة الإنسان بما يتنازعه من عواطف وتناقضات وقد ترتقي بموضوعها إلى مصاف تراجيديا **الملك آرثر وتريستان وإزوَلدا وعطيل**. **فديك الجن** مثلها جميعاً مستقاة من التراث يمتزج فيها التاريخ بشيء من الفلكلور الشعبي.

قد آثر رئيف خوري أن يستعمل "حجارة مقلع"[1] التاريخ "[لـ] يضع خمراً عتيقة في آنية جديدة... [فـ]كانت الثقافة لا تجربة الحياة المعاصرة سبيله إلى مزاولة القصص"،[2] كما يقول إحسان عباس الذي

١ التعبير لرئيف خوري في مقدمة كتابه **مجوسي في الجنة**.

٢ إحسان عباس، "رئيف خوري والقصة" في كتاب **من سرق النار: خطرات في النقد الأدبي**، ١٩٨٠، ص٣٩١-٣٩٧.

يرى أن اختيار رئيف لشخصية ديك الجن كي تكون موضوع روايته لم يكن موفقاً لأنه يتناقض مع ميل رئيف "إلى الجد في الغاية وإعلاء الجانب الأخلاقي وكسب النصر للفضيلة"[1] وذلك لأن شخصية ديك الجن تناقض كل ذلك. ويقف إحسان عباس حائراً حيال ما يصفه من حيرة رئيف خوري أمام نقائص الشاعر وكيف أن رئيف ختم قصته بالتساؤل عن حقيقة شذوذ ديك الجن. في حين يجد جوزيف مسعد[2] أن رئيف خوري لم يغفل قضية الشذوذ الجنسي في القصة كما فعل نسيب عريضة ويعقوب العودات (البدوي الملثّم) في روايتيهما عن ديك الجن، فكان جريئاً وأميناً على الحقيقة التاريخية. ويجد مسعد أن تساؤلات رئيف في القصة، عن قضية الشذوذ أو غيرها، تنطلق في الحقيقة من منظور أن التاريخ هو مشروع غير مكتمل حيث أن عملية إكماله تعود إلى القاصّ، بخلاف مفهوم نجيب محفوظ للتاريخ في روايته **زقاق المدق**، وهي الرواية الأخرى إلى جانب رواية رئيف خوري التي تناولها كتاب مسعد مطولاً، حيث أن دور التاريخ عند محفوظ هو تدوين الماضي وتسجيل التحولات من الماضي إلى الحاضر على غير ما انطلق منه رئيف خوري في روايته التاريخية من أن التاريخ مشروع يعمل الراوي على إكماله[3].

وقد تكون هذه النظرة إلى التاريخ هي التي حدت برئيف خوري أن يرى صفات فريدة عند ديك الجن قد ميّزته عن غيره من أبناء

---

١ المصدر نفسه.

2 Massad, Joseph, *Desiring Arabs*, Chicago, University of Chicago Press, 2007.

٣ المصدر نفسه، ص٢٩٥.

عصره، وربما ما بعد عصره، وهي أن ديك الجن كان شاعراً عزيز النفس ولم يكن مدّاحاً يستخدم شعره للتكسّب في زمن كان مدح الحكام شائعاً، وكان شيعياً[1] مما يخرجه من الصورة الغالبة لشعراء عصره ويدفعه إلى شيء من مواقف معارضة لنهج الحكام آنذاك[2]، وهو المسلم الذي أحب نصرانية وتزوجها، على ما أوردت بعض المصادر في حين قالت مصادر أخرى أنها كانت جاريته[3]، وقد رأى نسيب عريضة في ذلك مثالاً لتعايش الأديان في الشرق. أما أصوله الفارسية، وهو الشاعر العربي الذي نشأ في كنف الدولة العربية، فربما تصبّ في مصلحة تعايش الأعراق ونبذ التعصب العرقي والعنصري. فيكون رئيف خوري وهو يروي قصة هذا الشاعر لا يسوق حكاية رومنسية فقط بما فيها من حب عنيف وغيرة قاتلة بل قصة إنسان قد لا يلتزم بمبادئنا الأخلاقية المعاصرة وخاصةً بمبادئ رئيف خوري الأخلاقية[4] في بعض جوانب حياته، ولكنه إنسان ذو موقع فريد. وفرادة موقعه والأبعاد الإنسانية في قصة حياته كما إيحاءاتها العرقية والمذهبية والدينية والاجتماعية أو السياسية، وأيضاً ربما مسألة حرية

١ محسن الأمين، **أعيان الشيعة**، بيروت، مطبعة الإتقان، ١٩٥٦.

٢ المصدر نفسه.

٣ جرجي زيدان، **تاريخ الأدب العربي بين ١٩١١-١٩١٤**. (لست أدري إذا كان الفرق بعيداً بين أن تكون زوجته أو جاريته في المجتمعات الذكورية).

٤ "رئيف خوري، الكاتب التنويري"، بيروت، الحركة الثقافية في أنطلياس والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ٢٠١٤. مداخلة يمنى العيد وفيصل درّاج في المؤتمر حول فكر رئيف خوري، ت٢، ٢٠١٣، حيث يقول كل منهما إن مسألة الأخلاق مهمة في نظرة رئيف خوري إلى الأدب والنقد.

الخيارات الشخصية، قد تجعل من هذه الرواية فرصة مميزة لقراءة نقدية للتاريخ في إطارٍ قصصي ممتع يفتح نافذة على طريقة عيشٍ سمحة وغنية، ولو كانت مركّبة وربما معقدة أو حتى مأساوية.

لقد استطاع رئيف خوري تقديم رواية ممتعة ومسلية مرصّعة بأبيات من الشعر لا بُدّ للقارئ الوافد حديثاً على مثل هذه النصوص أن يذوق طعمها علّه يُدمنُ قراءة الشعر الذي يضجّ بالأحاسيس الإنسانية الوقّادة والمتناقضة. هذه رواية إنسان "يناقض نفسه بنفسه"[1]، حكاية شاعر عزيز النفس لكنه تائه يحاول ملء فراغ أيامه من غير جدوى وينتهي به المطاف إلى الفاجعة.

---

١ رئيف خوري، **ديك الجن**.

مدخل يفتحه التاريخ

الشيخ الذي اسمه التاريخ، مرافق الحركة في كل زمان ومالئ الفراغ في كل مكان، قصدته – وما أسهل قصده وأصعبه! – فلقيته (وليست هذه أول مرّة) وعلى شعره غبار الأيام المديدة البعيدة والمسالك السحيقة العميقة، فقلت له:

– إن لي عندك سؤالاً أيها الشيخ.

قال: يا بني، ما أكثر ما تعرض لي فتسألني!

قلت: لا بد من السؤال. ومن عساني أن أسأل سواك وأنت فيما قيل صاحب الحافظة المأمونة على ما تستودعك إيّاه الأجيال في الأمصار والأعصار. ولست بسائلك اليوم عن ملك ولا حرب ولا سياسة ولا ثروة ولا أثر من ضخم المباني، ولكني سائلك عن اسم، بل لقب، يمرّ متواضعاً، إلا أنه يغري بمعرفة صاحبه إغراءً لا حيلة في دفعه، ذلك هو لقب ديك الجن!

– قد كنت أعلم يا بني، ساعة قلت لك ما أكثر ما تسألني، أن لك أسئلة متعبة لقدم العهد الذي لا تفتأ تتلفت إليه وتدخل فيه. وإنك لعلى خطأ حين تتصورني صاحب الحافظة المأمونة على ما تستودعني إياه

الأجيال في الأمصار والأعصار. فإني أيضاً ممن يأخذهم السهو، وإني ممن يتأثرون بشتى المؤثرات فيسيئون أحياناً تقدير الأشياء والأشخاص، يعنون بما ليس في إهماله بأس ويهملون ما تجب العناية به. فلا تعجب أن أقول لك إنني لا أعرف الكثير عن صاحبك هذا ديك الجن.

– سبق لي أن فكرت في لومك يا شيخي، لقلة ما عنيت به من أمر هذا الرجل. لكنك حملتني على الحياء وقطعت عليّ السبيل إذ قلت إنك أنت أيضاً ممن يأخذهم السهو ويتأثرون بشتى المؤثرات. فلو كان ديك الجن هذا ملكاً له تاج – ولا فرق بين أن يكون أو لا يكون تحت هذا التاج رأس! – لوعيت فيضاً من أخباره فأنشأت تحدثني عن أبهة بلاطه وألوان موائده وأسراب جواريه وغزارة ما يجبى إلى خزائنه ووفرة جنوده، وما تصبب في خدمته من عرق الجباه ودم الأفئدة. بل لو كان ديك الجن هذا رجلاً تعلق ببلاط ملك، كاتباً في ديوان الرسائل أو شاعراً يتمسح بالأعتاب وينشد المدائح، لما فاتك نبأه هذا الفوت. ولكن ديك الجن كان امرءاً ورث مالاً واستهواه الشعر واستبد به الحب فلزم المدينة التي كانت مسقط رأسه وأنفق أطيب العمر في بساتينها وعلى ضفاف نهرها، غير مأخوذ بما يؤخذ به الشعراء من حب الكسب أو سعة الشهرة في العاصمة أو علو الرتبة في البلاط، فلم يكن ليبتعد عن مدينته ونهرها عدداً معدوداً من الفراسخ حتى يعود إليها وقد لج به الحنين، ولم يكن ليقول الشعر إلا مدفوعاً بخوالج النفس، وإذا مدح فعن رأي يميل به إلى الممدوح صواباً كان رأيه أو خطأ. لذلك يا شيخي لم يحظَ منك ديك الجن بعظيم اهتمام حتى لم يبقَ لديك في سجل الذاكرة من سيرته إلاّ لمع

لا تكفي، ومن شعره إلا نتف لا تشفي.

– قلت لك يا بني إنني حملتك على الحياء وقطعت عليك سبيل اللوم حين أقررت لك بأنني ممن يتناولهم السهو وتتصرف بهم شتى المؤثرات. على أنك مع هذا لم تقصر في لومي. وكأنك تجهل أن صاحبك كان غاوياً مستهتراً، وكان إلى هذه العلة شعوبياً ينتقص العرب وشيعياً لا يريد العباسيين، فأنا على حقٍّ حين لم أحتفل له ولم أقف عنده وقوفاً طويلاً.

– هوّن عليك يا شيخي، فديك الجنّ أولاً وآخراً شاعر عاطفة وربيب فن، وهو بهذه الصفة – لا صفة الواعظ ولا المرشد – له حقه عليك. فأما شعوبيته وشيعيته فعصبية لا يصح أن نقابلهما بعصبية، إنما يقضي الواجب أن نطلب تفسيرهما، ولعلنا نخرج من هذا التفسير إلى عذر. فإن لديك الجنّ على موقفه دفاعاً عن نفسه لا يليق بنا تجاوزه، بل لعلنا نخرج إلى حقيقة أهم من العذر لديك الجنّ، وهي أن العصبية عقيم إلا في ولادة العصبية المضادة لها.

– الحق أن هذا جدال يطول يا بنيّ. وقد جئت تحاكمني أم تستطلعني نبأ ديك الجنّ!

– لعلي جئت أطلب الغايتين.

– تحاكم التاريخ؟!

– ولمَ لا؟

– وبمَ تحاكمه؟

– بالتاريخ نفسه... لكني على كل حال أحب الساعة أن أنتقل عن المحاكمة إلى تلقي ما قُدّر لك أن تمسكه في حافظتك من خبر

هذا الرجل. وأحسبك إذا أثرت دفائن هذه الحافظة استطعت أن لا تردني فارغ اليدين.

– أرجو أن يكون الأمر على ما تقول يا بنيّ.

وأطرق الشيخ، التاريخ، إطراقة طويلة يدفن أصابع يده الممصوصة الهزيلة تارةً في لحيته الكثيفة الرمادية وطوراً في شعر رأسه الغزير الأبيض. ثم رفع إليّ جبهة مخططة بأثلام عميقة كأنها سطور شحنت فيها حوادث الأجيال مرقومة برموز يزحم بعضها بعضاً.

قال: أذكر أن صاحبك هذا ديك الجنّ – وهو لقب غلب عليه، أمّا اسمه فعبد السلام – خرج من ظلمة أمّه إلى ضوء الوجود في السنة ١٦١هـ (بين ٧٧٧ و٧٧٨م) وذلك بعد أن تولى الخليفة المهدي الحكم بسنتين. أسرته فارسية الأصل. وأول من اعتنق الإسلام من أسلافه جدّ له يقال له تميم من أهل مؤتة، بلد على حدود البلقاء إلى الشرق في الطرف الجنوبي من البحر الميت[1]. وكان اعتناقه الإسلام على يد حبيب بن مسلمة الفهري الذي أصبح فيما بعد والياً على قنسرين في جوار حلب، تابعاً للقائد أبي عبيدة بن الجراح. وقد أتيح لتميم هذا، برعاية حبيب بن مسلمة، أن يتصل بدوائر الدولة، فيتصل أولاده بها من بعده، ويجتمع لهم نصيب من المال والجاه، حتى كان حبيب بن عبد الله بن رغبان – وهو جدّ والد ديك الجنّ – كاتباً في

١ شهرت مؤتة بالمعركة التي وقعت فيها زمن النبي في السنة ٨هـ (٦٢٩م) بين جنود الإمبراطور البيزنطي هرقل والحملة التي قادها زيد بن حارثة انتقاماً لمقتل موفد أرسله النبي إلى والي بصرى الغساني، ورغبةً في الحصول على سيوف مؤتة المتينة الماضية للتسلح بها في فتح مكة. ولم يكن التوفيق يومئذ حليف زيد بن حارثة فصُرع في القتال وانهزمت الحملة وقوامها ثلاثة آلاف رجل استطاع خالد بن الوليد أن يلمّ صفوفهم ويعود بهم منكفئاً إلى المدينة.

عهد الخليفة المنصور يتقلد ديوان العطاء وإليه ينسب المسجد الذي يُقال له مسجد ابن رغبان في بغداد.

على أن ديك الجنّ لم يولد في بغداد على ضفاف الدجلة، بل في حمص على ضفاف العاصي. ذلك أن الأسرة، لسبب ما، كانت قد انتقلت من العاصمة العباسية في العراق إلى هذه المدينة الوادعة في سوريا، فأقامت فيها منزلها وملكت فيها الأملاك.

ففي حمص إذن، وفي جوار حمص، حيث يجري العاصي شرياناً مفتوحاً، سخياً عظيماً، هادئاً طويل الشوط، غني اللوحة بزاهي الألوان وعميقها مما يمتد إليه من حبال الشمس أو ينطرح فوقه من ظلال الشجر أو يتلاعب فيه من أخيلة الفروع والأغصان – في حمص، إذن، وفي جوار حمص، حيث تنبسط السهول إلى لا حدود في رأي العين، مكسوة بجلباب أخضر أنيق من البساتين، أو مجللة ببساط فضفاض من نبات القمح المتشح بضفة الفجر وذهب الغروب – في حمص هذه، وفي جوار حمص، حيث تنغم أبداً موسيقى طبيعية من هبوب الريح وسيل الماء وهمس الورق والسنابل، عاش ديك الجن يستهلك استهلاكاً ما انتهى إليه من ثروة عن أبيه رغبان، أو ما يهديه إليه ممدوحاه وصديقاه أحمد وجعفر ابنا علي الهاشميان الشيعيان في قرية السلمية القريبة من حمص. وكان جلّ إنفاقه على هذه الخمر التي شغف برشفها في البساتين، وكأنما كان يستنقع استنقاعاً في أباريقها ودنانها، حتى جرى له لقب ديك الجن: دويبة توجد في البساتين فتجعل في آنية الخمر وتدفن في الدور فلا تكون فيها حشرات على ما يقال. كذلك كان جل إسرافه في هذه الجارية

النصرانية، ورد، التي ذهب به هواها كل مذهب، وفي هذا الغلام بكر الذي تعلقه قلبه. وكان أكثر ما يلزم منزله يعقد فيه مجالس الشراب والطعام والغناء للمجان، ويستقبل من قد يزور حمصاً من الشعراء الناشئين والكبار كأبي تمام وأبي نواس. فإذا غادر منزله فإلى جهة على العاصي أو زاوية في بستان، أو إلى صديقيه في السلمية.

وكان له ابن عم يكنّى أبا الطيب كره منه هذه الحياة، حياة اللهو والتبذير، فلامه وعنّفه، وطالما هجم عليه في مجالس عربدته فأهانه، لكن على غير جدوى، حتى عمد أبو الطيب هذا إلى خدعة، فأشاع أن ورداً وبكراً اللذين يهواهما ديك الجنّ ويبذل لهما ماله إنما هما متعاشقان يخونانه تحت سقف بيته وفي فراشه كلما خرج ساعة آتتهما فيها الفرصة أو غاب أياماً في السلمية. فاتقدت في ديك الجنّ نار الغيرة، فذبح الجارية والغلام ذبحاً بالسيف. على أنه ما لبث أن وجد الفراغ القاتم الموحش يحيط بحياته. وكان يقول الشعر أكثر ما يقوله متغزلاً في الخمر والجمال، أو مادحاً صديقيه في السلمية، أو راثياً مصرع الحسين الشهيد الشيعي في كربلاء، فأصبح لا يكاد يكون له موضوع إلا إرسال القصيد في بكاء هذه الجارية التي أسرع إلى قتلها بتهمة الخيانة ثم اقتنع ببراءتها.

وامتدت حياة ديك الجنّ حتى السنة ٢٣٥هـ (بين ٨٤٩ و٨٥٠م) بعد أن تولى الخليفة المتوكل الحكم بسنتين. وعلى هذا يكون صاحبك قد عاش نحواً من أربع وسبعين سنة هجرية، وإحدى وسبعين سنة ميلادية. ولست أعرف له ديواناً مطبوعاً أو مخطوطاً، ولكنها مقطعات وقصائد منثورة هنا وهناك دوّنها

أصحاب البر بالأدب ممن خدموني.

وانقطع الشيخ عن الكلام، وأنفاسه تزدحم عياءً وقطرات العرق تتفصد من عميق الأثلام في جبهته.

قلت له: أرهقتك يا شيخي، فعذراً وشكراً. لكن خطرت لي أسئلة لا بدّ منها. فأنت لم تذكر شيئاً عن السبب الذي حدا أسرة ديك الجن إلى ترك بغداد ولزوم حمص، ولم تحدثني عن هذين الأبوين اللذين أنجباه وربياه، ولا عن ثقافته والعوامل التي ساقته هذا المساق في الحياة. ثم لم تصف لي طلعته في قليل أو كثير، ولم تذكر هل رزق ولداً، وما حقيقة الدوافع التي دفعت بابن عمه أبي الطيب إلى الإصرار في مضايقته، وفي أي الأعوام وقعت فاجعة فتكه بالجارية والغلام، وهل كان ديك الجنّ يمارس حقاً الاتصال بغلامه أم ذاك استمتاع العين بالجمال في جميع مظاهره؟ ثم هل اتضح لديك الجن حقاً أنه ظلم الجارية والغلام، وكيف؟ أم أنه ندم على شكه وغيرته وغفر لهما وعاش يعالج الجرح المحرق الذي أورثه إياه فراق الجارية إلى الأبد؟ إنها أسئلة تحتاج إلى أجوبة.

قال الشيخ: تعبت يا بنيّ، تعبت. وأسئلتك لا أجوبة لها عندي، أنا التاريخ، إلا على سبيل التقدير والاجتهاد. فأعفني. وقد اخترع الروائيون كداود الإنطاكي في كتابه **تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق** حكايات تتصل بديك الجنّ، فأفد منها إذا شئت وليس ما يمنعك أن تكون أنت روائياً، فقد قدمت لك من مقلعي مادة، فاشفعها بمادة من مقلع الخيال، وابنِ ما أردت أن تبنيه على شخص صاحبك الغريب.

الجدة القصاصة

حسن القامة، رقيق بشرة الوجه، تتلألأ عيناه في وقبيهما تلألؤاً حياً لا يخلو من خبث، وتسرع شفتاه إلى الابتسام – ذلك هو صاحبنا عبد السلام بن رغبان (ديك الجنّ فيما بعد) كما نحب أن نتخيّله على أول أعتاب الشباب في الخامسة عشرة من عمره، يغدو ويروح في جلباب من نفيس الحرير، رشيق الحركات، بدأ يعي الدنيا حوله بمقدار ما كان متاحاً له أن يعي الدنيا، وأخذت نفسه على لدونتها تتفتح لما هو عارض من مطالب العاطفة والعقل في حياة فتى من فتيان الأغنياء في مدينة كحمص نائية الإقليم عن عقدة الدولة ومركزها.

لقد تأتى له في هذه السنين الخمس والعشر أن يثقف قواعد لغته ثقافة متينة الأسس، ويستوعب صفوة من ذخائر آدابها لا سيما الشعر، ويسمع قصص الأعلام من رجال السياسة والدين والشعراء والكتّاب، ويلمّ بكبار الحوادث التي تقلّبت عليها الدولة حتى انصاع الأمر لبني العباس. ثم لقد فقد في هذه السنين الخمس والعشر أباه، وفقد أمّه، فلم يبقَ له من أقربائه الأدنين (وأيّ جناح علينا إذا أبقيناها له؟) إلاّ جدّة لأمّه طاعنة في السنّ لن يلبث الموت أن يسلبه إيّاها هي الأخرى.

على أنها ما زالت الآن في شيبتها ورعشتها تنفرد به في الليالي الطوال فتسامره بما تراكم لديها من غرائب الأخبار وألوان الخبرة بالحياة.

كانت هذه العجوز تعلم أن الثروة الطائلة التي توفي عنها والده، فأصبحت في وصاية عمّه، صائرة إليه في أجَلٍ قريب فيتصرّف بها كما يشاء بعد بلوغ سنّ الرشد. وكانت إلى ذلك تعلم أن عمّه وأبناء عمّه ربما طمعوا في هذه الثروة وحاولوا تجريد الفتى الناشئ منها. على أن أخوف ما كانت تخافه هذه العجوز أن يفرغ حفيدها إلى هذا الشعر الذي شغف بالقرزمة[1] فيه، وإلى هذه الطبيعة الشعرية التي تزيّن له حياة اللهو من غرام وخمر فيبدّد ثروته تبديداً. ومن هنا كانت لا تريد شيئاً كأن ينزع هذا الفتى الناشئ إلى الزواج وإنجاب البنين وسلوك سيرة محافظة توفر عليه ما ترك له أبوه من رزق ومتاع. فكانت لا تفتأ ترشده، لكن بأسلوب التلميح لا التصريح، فتقصّ عليه الوقائع ذات العبرة مما يتصل بدهاء النساء ومكر الخمرة وهوان الشعر والشعراء، إبعاداً له عن الغلوّ في هذه الآفات. وزادت فأقصت عن الدار كل رائحة لحواء!

والحق أن الجدة العجوز كانت محدّثة بارعة. إلاّ أنها على جودة حافظتها كانت كثيرة النسيان، فطالما حدّثته بالقصة الواحدة مرّة ومرّات وهو ينصت إليها مأخوذ اللب، مستغرق البال.

قالت له يوماً، والله يعلم كم ردّدت عليه هذه العظة: كن يا بنيّ على حذر من المرأة، فمهما بلغت بك الحيلة فإن لها حيلاً لا تستطيع إلى معرفتها سبيلاً. من ذلك ما كان يرويه لنا جدّك عن رجل من بني

١ القرزمة في الشعر هي أول قوله.

عامر خرج يوماً في الصحراء على بعير له متنكباً قوسه، وهو فتى أشبه بك رونقاً لم يسودّ موضع شاربيه ولا نبتت في وجهه شعرة. فما زال سائراً حتى طلع على قوم قد قوضوا خيامهم وحمّلوا جمالهم وساقوا ماشيتهم منتقلين من منزل إلى منزل لكن وراءهم فتاة قد تخلفت على بعير متظاهرةً بإصلاح بعض شأنها، فما أدركها الفتى العامري، وقد اتسعت المسافة بينها وبين قافلة قومها، حتى وجد صبية كأنها تحت خمارها فلقة القمر تحت السحاب. فوقف عليها مسلماً. فردّت عليه سلامه بأرخم صوت، وجعلت تظارفه وتمالحه حتى ذهبت به أمانيه كل مذهب.

ثم سألته على بغتة هذا السؤال الجريء: أيهما أحسن في ظنك عريُ الرجل أم عري المرأة؟

فذهب الفتى هنيهة عن الجواب. ثم قال: أظن عري الرجل الجميل لا يوازيه جمال في الأرض.

وكان يريد أن يتحدّاها...

فقالت له: شدّ ما أنت واهم مغرور. فإن المرأة الحسناء إذا عريت كانت في الأرض سفيرة السماء! فإذا شئت البرهان لم أبخل عليك.

قال الفتى وهو يرى أنه قد أفلح في تحدّيها: إن البراهين لا تكون بالقول.

أجابته: فدعني إذن أقدّم لك البرهان فعلاً. لكن أطعني في ما أشير عليك به. سأبدأ بنفسي فأتجرّد من ثيابي وأرميها عني، ثم أمشي حتى أبلغ هذه الأكمة القريبة. ثم أعود فتصنع أنت ما صنعت. وعليك عهد الله وميثاقه أن لا تخلف.

قال الفتى وقد أعجبه الأمر: هو ذاك. لك عليّ عهد الله وميثاقه أن أصنع ما تصنعين.

فإذا بالفتاة تهبط عن بعيرها في غير ما تردّد، فتخلع ثيابها فوراً عن بدنٍ متسقٍ صقيل كالمرمر، وتمشي إلى الأكمة متماوجةً مغريةً مثيرة. والفتى قد علقت بها عيناه حتى لكادتا تخرجان من رأسه وتلحقان بها.

ثم لم تلبث أن عادت وهي على مثل فتنتها الأولى وإغرائها وسحرها.

وقالت للفتى: الوفاء!

فقال لها: ونعمة عين.

ثم طفق يطرح عنه ثيابه مطمئناً إلى هذه المغامرة السعيدة الغريبة، حتى إذا اكتمل عريه مشى إلى الأكمة معتدلاً بقامته، موازناً خطاه على الرمل، حريصاً أن لا يكون هو الخاسر في هذه المباراة، أو أن لا يكون إعجاب الصبية به أقل من إعجابه بها.

على أنه ما كاد يبلغ منتصف المجال إلى الأكمة حتى سمع خرخرة بعير وراءه. فالتفت فإذا بها قد لبست ثيابه وتنكبت قوسه وركبت بعيره وحثت السير في مدى الصحراء.

وعبثاً ناداها فإنها لم تكترث له...

فأسرع في الرجوع وارتدى ملابسها وتخمّر بخمارها وركب بعيرها وانطلق في أثر قومها حتى أطل عليهم من بعيد. فظل لا يجسر على الدنو منهم مخافة أن يكشفوا أمره. على أنهم ظلوا يتلفتون إليه ويصيحون به: ويحك أقبلي! لاعتقادهم أنه الفتاة. ولزم هو الصمت

وثابر على تباطؤه. فبعثوا نحوه بجارية تستعجله. فلما أقبلت عليه الجارية نزعت من يده مقود البعير واحتثته على السير. لكنها رمقت وجهه تحت الخمار وهي تظنه مولاتها، وقالت له: لقد أمسيتِ حادّة الطرف، وكانت في عينيك رقة!

فلم ينبس الفتى ببنت شفة. وسكتت الجارية وراحت تسعى في قيادة البعير حتى أدركت به القوم وكانوا قد بلغوا المكان الذي اختاروه للنزول.

وعجب الفتى أن تسكت الجارية فلا تخاطبه إلاّ بتلك الكلمة. ثم عجب أن يتحاشاه القوم جميعاً بعد وصوله، فلا تتقدّم منه إلاّ عجوز هي أم الفتاة بدرته بقولها:

– يا ابنتي، لشدّ ما استحييت من الناس لطول ما ناديتك اليوم وأنت عنا متغافلة متباطئة. وليس يليق ذلك بكرام الفتيات.

فلم يقل الفتى شيئاً.

فاستأنفت العجوز كلامها: هوّني عليك يا ابنتي، ولا يثقلك أمر ربما كانت عاقبته خيراً لك. والآن، ألا تنزلين عن ظهر هذا الجمل البارك؟ ألا تدخلين الستر وقد أسرع أهلك فنصبوه لك أول شيء؟

ومدّت العجوز يدها فأمسكت بمعصم "ابنتها" وأنزلتها عن البعير وسارت بها نحو الستر المنصوب، تارةً تنظر في وجهها وطوراً تلتفت إلى مشيتها، وتستنكر صمتها الدائم، إلى أن صارتا وراء الستر، فقالت العجوز فجأةً:

– من أنت لا أفلحت؟

أجاب الفتى: وكيف تسألينني وأنا ابنتك؟

قالت العجوز: أفتهزأ مني – لا لقيت الخير! – ووجهك ومشيتك وصوتك دليل عليك؟

ردّ الفتى: بل ابنتك لا أفلحت ولا لقيت الخير. فإنها هي التي استدرجتني هذا الاستدراج وورّطتني هذا التوريط.

وراح الفتى يقصّ عليها الواقعة. وهي تلتمسه أن لا يرفع صوته فيفطن له القوم ويتعرّض لأذاهم ويعرّض الفتاة للانتقام.

ثم قالت له: نشدتك الله، ألا أعرتني نفسك هزيعاً من الليل. وقد كنا على أهبّة أن نزوّج ابنتي برجل من أهل الحيّ لم يعجبها على عظيم ثروته وجاهه. فبالرجل شيء من بلاهة وكبر في السنّ. لذلك تخلّفت ابنتي هذا التخلّف وكان من أمرها معك ما كان. فإذا مكثت هنا هزيعاً من الليل – وإنك لماكث – أدخلت عليك الشيخ الزوج، ولن ينكر هيئتك ما دمت كما أراك فتىً أمرد. فإذا عالجك فعاركه وما أظنه أقوى منك، فلا يلبث أن ينصرف عنك. ولك عندي بعد هذا يد بيضاء لا أنساها العمر.

فلم يجد الفتى بدّاً من الموافقة. وقد رأى، لطيب سريرته، من الغبن أن تدفع فتاة حسناء كالتي عرفها إلى حضن شيخ منقوص العقل.

وأقبلت على الأثر أخت الفتاة وخالتها، فألبستا الفتى ثوب العرس وجعلتا عليه الطيب، ثم تركتاه حتى كثفت عتمة الليل.

وإذا بالشيخ يدبّ وئيداً ويتسلّل إلى ما وراء الستر بجسم ضخم عليه دلائل القوة وعينين تلمع فيهما الشهوة، إلاّ أن مظاهر البلاهة لا تخفى في سحنته. فبسط يداً يداعب بها خدّ الفتى وهو يظنه العروس. فدفعه عنه الفتى برفق أول الأمر، ثم اشتدّ بينهما الأخذ والردّ حتى

انتهيا إلى عراك عنيف أصرّ فيه الشيخ إصرار البهيمة المقبلة على مأكل تشتهيه، وعاند فيه الفتى عناد من ينحي رقبته عن سكين الذابح.

وأخيراً فترت قوة الشيخ، فانصرف لاعناً متوعداً، وقعد الفتى في ملابس العروس لاهثاً يمسح العرق عن جبينه.

وإذا به فجأةً يسمع صوتاً عرف فيه خرخرة بعيره. فأيقن بدنو الفرج قبل أن يستريح الشيخ فيعود.

ثم ما هي إلاّ دقائق معدودة حتى دخلت عليه الأمّ العجوز والخالة والأخت، ومعهنّ الفتاة لابسةً ثيابه. فنزعن عن الفتى ملابس العروس وهو لا يدري أينشقّ غيظاً أم ينفجر ضحكاً. ثم كسونه ثيابه ورددنَ عليه قوسه وقلنَ له:

– بعيرك في خارج، فاركبه وامضِ على بركة الله!

قال: كلا، لن أمضي قبل أن أعرفَ سرّ هذه الفتاة – أين كانت؟ فإن لها سرّاً! وإلاّ صحت في الحيّ صيحةً، فنبهت الجميع وأعلنت عليهم واقعة الحال.

فضحكت الفتاة ضحكةً شيطانية كبتتها لئلا يترامى صداها في سكون الليل. وبدا أنها لم تعر كلامه ذرّة من اهتمام.

غير أن الأمّ قالت له:

– ساعدت على إلقاء الستر، فلا تكشفه الآن. فإذا أبيت إلاّ أن تعلم، فإن هذه الفتاة عاشقة لأحد الفتيان وقد قضت عنده هزيعاً من الليل، وأقسمت أن لا يمسّها هذا الشيخ.

قال الفتى: فلم يكن أمامي إلاّ أن أسرع في الذهاب تحت حجاب الليل هرباً من هذه الفتاة التي تقمصها على جمالها إبليس اللعين، فهي

تعرض عريها في غير ما حشمة ولا حياء.

وهنا تنهدت العجوز جدّة ديك الجنّ وأطرقت صامتة، تختلس النظر إلى حفيدها وفي ظنها أنها قد أفرغت في نفسه الناشئة كرهاً للنساء لا يزول.

غير أنها في الواقع لم تكن لتدرك غايتها. فإن قصصها كانت توجّه حفيدها الناشئ عكس ما تنشده له من توجيه، فيزداد في قرارة ضميره شوقاً إلى المغامرة مع النساء وتعرّف أسرارهنّ العجيبة.

واتخذ عبد السلام قاعدة الصمت يقابل به صمت جدّته إذا انتهت من تلاوة قصتها. فكان ذلك يغيظها، حتى قالت له يوماً بعد أن حكت له الحكاية السالفة:

– ما لك لا تفوه بكلمة كأن لسانك معقول عن النطق؟ ألست موافقاً؟

فأجابها: يخيل لي أنك تظلمين هذه الفتاة. فقد أرادوها، وهي الصبية النضرة الطالعة على الحياة، أن ترضى بشيخ منقوص العقل لا لسبب إلاّ ثروته وجاهه. ومستحيل أن تكون بينها وبين هذا الشيخ مجاوبة في الروح أو في دم البدن ولحمه. فلا غرابة إذن أن لا ترعى عهده وأن تعزف عنه إلى نظير لها في الشباب، وأن تسخّر في سبيل هدفها كل وسيلة وحيلة. فأما الفتى العامري فحسبه أنه متّع عينيه بعريها ولو لحظة من زمان.

فقالت الجدّة وهي تعيد الكرّة بعد أن هالها هذا الاستنتاج الذي خلص إليه حفيدها الصغير:

– ربما كنت، يا بنيّ، على بعض الحق في ما ارتأيته بشأن هذه

الصبية التي أريدت لشيخ ليس بينها وبينه مجاوبة بدن أو روح. لكن ما قولك في امرأة، جارية من سقط الناس، تفضّل عليها خليفةٌ بهيّ كسليمان بن عبد الملك فشغل بها قلبه وأغدق عليها العطايا، فإذا بها تحنّ إلى أحد غلمانه من المغنين!!!

ولم تنتظر العجوز أن يطالبها حفيدها بالقصة، فأنشأت فوراً تحدّثه، قالت:

– تلك هي الذلفاء! لا يعلم الناس موضعها الذي نبتت فيه، ولكنهم يعلمون أنها كانت مزوّدة أوفر الزاد بهذا الجمال الأنثوي الذي هو سلاح إبليس، حتى اشتراها الأمير سعيد بن عبد الملك بألف ألف – أو بمليون! – درهم وتدلّه بها حباً. على أن سحرها ما لبث أن تجاوز سعيداً هذا إلى أخيه سليمان وكان لا يزال أميراً هو الآخر. وقد بلغ من شغف سليمان بهذه الجارية أن دخل عليه يوماً رجل اسمه أبو زيد الأسدي فوجده على حالٍ أشبه بالجنون. وجده جالساً على الديباج الأخضر فوق مصطبة مبلطة بالرخام الأحمر، في وسط بستان ملتفّ الشجر، يانع الثمر، نوّرت على حفافي مجاريه الأزهار. وأبصر على رأسه وصائف يتنافسنَ بهاءً، والشمس قد غابت أو أوشكت أن تغيب فأضفت على المكان كلهِ حلّةً بلون الذهب. فسلّم أبو زيد على الأمير الذي كان مطرقاً ممتقع اللون ذاهلاً، حتى إذا أتته كلمات زائره رفع رأسه متثاقلاً وقال: أفي مثل هذا الحين يلفى أحد حياً يا أبا زيد؟

فأجابه أبو زيد: ولِمَ أيها الأمير؟ فهل قامت القيامة؟

قال سليمان: نعم على أهل المحبة إذ أمرهم سرّ والمراسلة بينهم خفية وخلسة!

وهنا تفرّست الجدّة العجوز في عينيّ حفيدها وارتدى وجهها المغضن بريقاً من الجدّ الفاجع وقالت له: فتأمّل، يا بنيّ، ما كان يقع بين الأخ وأخيه لو أن الأمير سعيداً بن عبد الملك عرف أن بين جاريته الذلفاء وشقيقه سليمان مراسلة طي الكتمان؟ أفما كانت الغيرة تدسّ بينهما السم وتزرع الحقد وربما أراقت الدم؟

ولكن ظهر من عيني الحفيد الناشئ أنه يؤثر أن تتابع القصة على أن تعلّق عليها.

فاستمرت العجوز تقول: ثم ما لبث سليمان أن وجّه إلى زائره سؤالاً اقتضته مواصلة الحديث، ولعل سليمان كان يأمل أن يخرج بهذا السؤال مما هو فيه من وحشة ووجوم، فجاءت النتيجة خلاف ما أراد. قال له:

– يا أبا زيد! ما يطيب في مثل هذا اليوم؟

أجابه الزائر: أما وقد سألت أيها الأمير، فإن ما يطيب خمرة صافية تقدّمها حسناء غاوية، هيفاء دعجاء، يشرب الشارب من كفها ويمسح فمه بفمها.

وكان أبو زيد هذا يرجو أن يشيع جوابه البهجة في الأمير المغمور بالكآبة. ولكن سليمان ازداد استغراقاً في وحشته ووجومه، وطفقت عبرات صامتة تنحدر من عينيه. فلما رأت الوصائف ذلك ابتعدنَ عنه. فقال لأبي زيد:

– إنك مقتول يا رجل، أو تخبرني ما أثار هذه الصفة في نفسك.

أجابه أبو زيد: نعم، وقى الله الأمير. كنت جالساً عند باب أخيك سعيد فما انتبهت إلا على جارية خرجت إلى باب القصر كالظبية

انفلتت من شبكة القانص، عليها قميص اسكندراني رقيق يشرق عليه بياض بدنها ويكاد يلهبه، شعرها مضموم في ضفيرة واحدة تغطي منكبيها وتتموّج انحداراً إلى قدميها. أما فمها القرمزيّ فكأنه والله جرحٌ يقطر دماً. وسمعتها تخاطب نفسها بعلوّ صوت كأن نفسها بعيدة عنها فتقول: طال الحجاب وأبطأ الجواب فهل من سبيل؟ فلم أملك أن هتفت بها: أيتها الجارية! إنسية أنت أم جنية، سماوية أم أرضية؟ فسترت وجهها بكمّها وأجابت: أيها المتكلم اعذر. وانصرفت متوارية. لكن طيفها، أيها الأمير، يتمثل لعيني كيف التفتُّ.

قال سليمان وقد تفتحت في نفسه الجراح: تلك، يا أبا زيد، هي الذلفاء جارية أخي، اشتراها بألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها، والهة بذكراه. أيُلام، يا أبا زيد، من لا يموت إلا بحزنها ولا يدخل القبر إلا بغصّتها؟

ومرة أخرى وجدت الجدة العجوز فرصة مواتية لإذكاء الحذر في نفس حفيدها من النساء، فقالت له بعنف: انظر أية امرأة هذه! تكون لسعيد بن عبد الملك، وتراسل شقيقه سليمان سراً، ولا تزال تعشق الرجل الذي باعها؟

ولكن لم يبدُ على عبد السلام أنه اهتمّ لهذا التعليق في قليل أو كثير!

فرأت الجدّة أنّ خير ما تصنعه أن تمضي في قصتها، فقالت بعد تنحنح يسير:

– ثم أصبح سليمان بن عبد الملك هو الخليفة الآمر الناهي. فلم يلبث أن ضمّ إليه الذلفاء ومكّنها من قلبه فاستأثرت به. على أنه لم يستطع إلى الاستئثار بقلبها سبيلاً. وأنّى له ذلك؟ فقد كانت لا تزال

تذكر من باعها، وتذكر سيدها بالأمس سعيد بن عبد الملك، ثم لم يقف بها الأمر عند هذا الحدّ!...

كان لسليمان نديم وسمير ومغنٍّ اسمه سنان. وكان سنان هذا نضر الشباب مسكر الصوت. فكانت الذلفاء تسمع صوته أحياناً يعلو في القصر وتتجاوب أصداؤه الحلوة الشجية، فتصغي إليه أعمق إصغاء وتستفيق فيها نداءات الأنوثة.

ففي يوم وقد أقبل الربيع وكسا الغوطة بألوان زهره وملأ جوّها بأنفاس عطره، خرج الخليفة سليمان في حاشيته إلى الغوطة وأمر أن تُضرب له فيها الخيام، فجعل للذلفاء خيمةً وجعل لنديمه سنان خيمة. وانطوى النهار وشطرٌ من الليل وسليمان ونديمه على شرابٍ وغناء. ثم انفضّ عقد المجلس فأوى سنان إلى خيمته نشوان ورافقه بعض الحاشية على أن يتابعوا السهر إلى الصبح. والتمسوا من سنان أن يغنيهم فأبى تهيّباً للخليفة. غير أنه لم يملك نفسه على إلحاحهم وإلحاح نشوته، فانفجر منشداً:

محجوبة سمعت صوتي فأرقّها
في آخر الليل لما طلها السحر
في ليلة التم لا يدري مضاجعها
أوجهها عنده أبهى أم القمر؟
لم يحجب الصوت أبواب ولا غلق
فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو خليت لمشت نحوي على قدم
يكاد من لينه للمشي ينفطرُ!

فلم تنسكب ألحانه مثيرةً في أذن كما انسكبت في أذن الذلفاء، وهو يروي بالشعر والنغم حكايةً أشبه بحكاية حاله وحالها في هذا الليل. وكانت الذلفاء على وشك أن تنام بعد أن اضطجع سليمان إلى جانبها ورقد. لكنها انسلّت من الفراش إلى خارج الخيمة، والقمر يغمر الغوطة والنسيم يلهث في ورق الشجر، ومياه بردى تسيل ساجيةً خرساء لولا همهمة رقيقة. وألحان هذا المغني تصعد وتمضي ضائعةً في أبعاد الليل تاركةً في الروح خدراً لذيذاً.

وقفت الذلفاء تتملأ من بهجة الليل المحيط بها وتشرب بضميرها هذه الألحان المسكرة. وقفت مغروسةً في الأرض كأنما وقع عليها السحر. وإذا بها فجأةً تحسّ يداً وراءها انحطّت على كتفها! فقد صحا سليمان فلم يجدها معه في الفراش. وصاح بها: ويحك ما هذا؟

قالت: أغيرةً من صوت يا أمير المؤمنين، وصاحبه عبدٌ وضيع من عبيدك؟!

قال سليمان: دعيني من هذا، لقد خامر قلبك منه شيء.

ودعا بأحد غلمانه فأمره أن يستحضر سناناً. فأقبل سنان وقد غاضت الألحان في حنجرته بل غاضت الكلمات من شدّة الوجل.

قال له الخليفة: ويحك: ألم أنهك عن مثل ما كنت فيه الساعة؟ والله لأطيلنّ غمّك!

فما أسرع ما سُمع صوتٌ رقيق من داخل الخيمة، صوت الذلفاء يقول: هب لي ذنبه يا أمير المؤمنين.

قال الخليفة: اطلبي ما شئت إلاّ هذا.

قالت: هب لي ذنبه، ولست طالبةً منك شيئاً.

فصمت سليمان، ثم قال لسنان: انصرف وإياك أن تعاود ما كنت فيه. لقد شفع بك من لا سبيل إلى ردّ شفاعته.

وحان للجدّة العجوز أن تختم قصتها، فقطبت ما بين حاجبيها، قائلةً:

– ويعلم الله ما كان فيما بعد بين هذا الغلام المغنّي وهذه المرأة التي لم تستغنِ بالمال ولا بالشباب ولا بالسلطان عن الانقياد لنزعات الشيطان! ولو أن سليمان بن عبد الملك أطاع رجولته ساعة شفعت هذه المرأة بالغلام الذي صبا إليه قلبها لدحرج رأسيهما عند قدميه.

غير أن الفتى الحفيد حين رأى جدّته تتحمّس هذا التحمّس لم يزد على أن ابتسم ابتسامةً حاول أن يخفيها بإحناء رأسه، ولكن العجوز لمحتها، فأصابتها الخيبة في حماستها وسكتت على تشنّج واضطراب.

وهكذا انساقت الأيام والليالي بين صاحبنا عبد السلام بن رغبان وجدّته. أيام وليالٍ موسوقة بأمثال هذه القصص التي كانت تحاول بها العجوز أن تسدّد خطى حفيدها في "الطريق الأقوم"، بينما يؤثر هو أن يستقلّ في اختيار طريقه.

ديك الجن يصبح ديك الجن

أدرك عبد السلام بن رغبان السن التي اصطلح الناس على أن المرء يبلغ بها الرشد، فأصبح هو السيد المطلق يستعمل كيف يشاء هذه الثروة التي خلفها له أبوه. وسرعان ما اتضح أن ما خشيته جدّته لم يكن وهماً من الأوهام. فقد وجد حفيدها صعوبةً في استنقاذ ثروته من وصاية عمّه وأبناء عمّه، وقد أفلح هؤلاء في إمساك شيء من الثروة عليه، بشتى الحجج والذرائع، ولولا الطبيعة المسامحة التي تخلّق بها صاحبنا إزاء هذا العرض المادي لانتهى الأمر إلى ما لا تُحمد عقباه.

كذلك اتّضح شأنٌ آخر كانت قد هجست به الجدّة العجوز وخافته أشدّ الخوف وحرصت على تلافيه. ذلك أن عبد السلام بعد أن تمّت سلطته على هذا المال الكثير الذي أورثه إياه والده جعل يعاشر طائفةً من شبان المدينة يسيرون سيرة موضع الريبة والمنكر، فهم لا يفعلون شيئاً سوى أن يقولوا الشعر ويرتشفوا الخمر ويتهالكوا على النساء ويصحبوا صغار الفتيان صحبةً تثير التهم. وكان أكثر هؤلاء الذين نزع عبد السلام إلى معاشرتهم مفاليس أو كالمفاليس، يقبلون عليه فيكلفونه الخروج إلى الميماس على العاصي يعبّون على

نفقته الكؤوس ويأكلون شهيَّ الطعام وينصتون إلى العزف والغناء.

على أن العجوز لم تذهب أول الأمر في قلقها إلى حدّ بعيد. فقد كانت على مثل اليقين أنّ عظاتها لحفيدها لن تضيع سدى وأنه لن يلبث أن يتجاوز هذا الطور المخصوص من أطوار حياته. وكان يشجّعها على هذا الرجاء ما تراه من اعتدال عبد السلام. فهو يتعاطى الخمرة ولكنه لا يسكر ولا يعدم وعيه. وهو يسعى في طلب المرأة ولكن في حرص على الاستتار والحشمة كما تدل دلائله. وهو يختار لصداقته صباح الوجوه من الفتيان على أنها لا تلحظ عليه سوءاً.

... حتى كان يوم رجع فيه حفيدها من نزهة في الميماس. رجع في هزيع متأخر من الليل، فلم تستيقظ له إلاّ وقد دخل صحن الدار الخارجي وصدم برجله جرةً من خزف كانت قد ملأتها ماءً ونصبتها إلى جانب الجدار. فانقلبت الجرّة وضربت إبريقاً من نحاس انقلب هو الآخر على البلاط. فأحدث ذلك كله ضجة نهضت لها من فراشها وتلمّست عكازها ودلفت إلى الباب لترى شبحاً عرفت فيه عبد السلام يتحرّك متكئاً على الجدار يتشبّث به تشبثاً مخافة أن يختلّ توازنه فيقع.

فأدركت أنه سكران حقاً!!! وازدادت يقيناً حين نادته فأجابها بلسان متلجلج وهمّ بالانطلاق نحوها فانكبّ أرضاً على وجهه.

فأسرعت إليه بمقدار ما كانت تستطيع الإسراع، وانحنت فوقه فأخذت برأسه، فإذا به يدير صوبها وجهاً مرتخي الفكّ مخدّر العينين تشوّس شعره وانسدل على الجبين.

فلم تقل له شيئاً سوى أن حثته على الانتقال إلى داخل الدار، اتّقاءً لما قد يلحق به من ضرر إذا طال انبطاحه على البلاط البارد العاري،

وبه ما به من حمى الشراب.

فحاول أن يستوي قائماً على قدميه فخانته مفاصله المضعضعة، فأنشأ يزحف على يديه وبطنه، يجرّ وراءه قدميه كأنهما جناحان مهيضان.

فما صار في داخل الدار حتى مدّت له فراشه ودثّرته بغطاء وجلست إلى جانبه تدفن أصابعها العظيمة الجافة في شعر رأسه الأسود الضافي.

فلم تلبث أن سمعته يغمغم بلسانه المتلجلج:

– لعلك تريدين أن تبادريني بموعظة من مواعظك!

وأحست في صوته بنبرة قاسية من الزجر. ثم استولى عليه نومٌ عميق صحبه تنفسٌ ثقيل وغطيطٌ متعب.

فمالت عليه تقبّله برفق. وأفلتت من عينها دمعةٌ مسّت بحرارتها وجهه وتزلجت على بشرته الناضرة.

ولكنه لم يكن ليشعر بها.

... وإذن فهذا عبد السلام أصبح كمعاشريه يشرب الخمر ويغالي في شربها حتى يسكر، ويغلب عليه السكر، فلا يقدر على نقل القدمين إلاّ مستنداً إلى الجدران. وما أدرى العجوز، وهي قابعة في عقر الدار، أن عبد السلام إذا طاف بأحياء المدينة أو خرج إلى الميماس احتشم فلم يتبذل في طلب النساء، ولزم في صحبة من يصاحب من الصبيان حدّ الطبيعة فلم يتطرق إلى الشذوذ والفساد؟

وأنفقت الجدّة ليلتها تلك ساهرةً على نوم حفيدها، موزّقةً بهذه الوساوس التي خطرت على بالها فاستبدّت به.

فلما وضح النهار، فصحا عبد السلام من رقاده المثقل، دنت منه وفي حدقتيها الضيقتين ووجهها المغضن حكاية، على صمتها، قوية العبارة عمّا كابدته في الليل المنصرم من جهد وضنك وخواطر معذبة، وعمّا تشاء أن تقوله له في موضوع سيرته غير المنظومة بنظام. ولكنه كان حريصاً على الهرب منها. فأشاح بعينيه الساهيتين ووجهه المنكسف حياءً منها وخجلاً. ثم عجّل في مغادرة الدار بحجة أنه على موعد والأصحاب...

وعبثاً توسلت إليه بعينيها أن يمكث. وعبثاً اختلجت للكلام. فإنه سرعان ما أصبح في الطريق خارج الدار!

وانشرح صدر عبد السلام حين قابل الهواء الطلق وحين استعرض في ذهنه الخضرة والمياه والكؤوس والأنغام واللذات على ضفة العاصي بعيداً عن العجوز وقصصها وعظاتها.

أما العجوز فكان من الصعب عليها أن تقتنع أن قصصها وعظاتها في توجيه حفيدها قد ذهبت درج الريح. وظلت تأمل أن تكون الليلة البارحة فلتة أفلتت، وأن تكون خواطرها من وحي الأوهام الباطلة.

ثم رأت أن تمضي إلى رجل ممن تعرفهم، فتسأله أن يراقب سيرة حفيدها فيأتيها بما يشهده أو يسمعه من أخباره.

فقال لها الرجل: ولكن أية حاجة إلى المراقبة، وأخبار حفيدك وأقرانه من المجّان ليست بسر؟ فهو صاحب خمر ولهو ونساء وغلمان، تارةً على الميماس وطوراً في زاوية عند خمّاري النصارى أو اليهود. وقد بلغ من حبه للشراب والخلاعة أن لُقّب بديك الجنّ لقباً اشتهر به. فالناس كلهم يعرفون من ديك الجنّ، ولا يعرفون من عبد السلام بن رغبان.

فقالت العجوز مجفلةً، وقد ذهب خيالها مع الديك والجنّ إلى أشأم التصورات: ويلي! وما معنى هذا؟

قال الرجل: ومن يدري ما يريد إخوان الشياطين، هؤلاء، بمثل هذه الألقاب؟ لكني أعرف ديك الجنّ دويبة توجد في البساتين وتحب الاستنقاع في خوابي الخمر!

فحوّلت العجوز عكازها ودارت بظهرها الذي اشتدّ انحناؤه، تمشي مشياً واهناً وئيداً. ولبثت سائر يومها في الدار، لا همّ لها إلاّ هذه الموعظة البليغة التي تستقبل بها حفيدها متى عاد، فتقبّح له الرذيلة تقبيحاً لا يتعاطاها من بعده. وهي كالوعّاظ جميعهم تأبى أن تدرك أن الرذيلة جميلةٌ مغرية، وأن ترك الرذيلة لا يكون لأنها قبيحة بل لأن تركها واجب ترتاض عليه النفس ارتياضاً صعباً وتنفطم له انفطاماً قاسياً.

وبادرت الجدّة حفيدها أول دخوله الدار في الهزيع المتأخر من الليل – بادرته بقولها:

– عبد السلام! عبد السلام! أم أدعوك ديك الجنّ؟ واضطرب صوتها بما يعتلج في قرارة قلبها من حنان وعتب وتوبيخ وتوسّل.

فقهقه الحفيد قهقهةً شاعت معها رائحة الخمر من فمه، وقال: وأنت أيضاً بلغك هذا؟ أما تنامين يا جدّتي؟...

شدّ ما كانت، تحت سقف الدار، منغصة منكّدة تلك الأيام التي انقضت على ديك الجنّ وجدته بعد ذلك اليوم. فقد كان صاحبنا لا يعود – في أيّ الأوقات عاد – إلا وجد العجوز قائمة بانتظاره تكيل له ما أعدّته في نهارها من نصح وإرشاد، وتذكّره بأن خطاها قريبة من القبر، وأنه يعجّل في دفعها إليه، وأن شبيبته وثروته وسمعة الأسرة

وسمعته كل أولئك أثمن من أن يفنيها في هذه الطريق التي لا تليق ولا تقود إلى غاية.

فكان يعتصم بالصمت في معظم الأحيان. فإذا تكلّم تكلّم بأناةٍ وتأكيد، كأنما انتهى إلى ما انتهى إليه بعد فكر وتأمّل طويل، فقال:

– أكثر من ينعتون هذه الطريق بأنها لا تليق إنما ينافقون. أمّا الغاية فالطرق كلّها تقود إلى غير غاية!!!

فتضرب العجوز كفّاً بكفّ وتدعو له بالهداية من لدن الله تعالى، أو تسخط فتستنزل عليه اللعنات، أو تنهار فتشهق بالبكاء...

حتى كان صباح صحا فيه ديك الجنّ من رقاده المخمور، فوجد عجوزه قد أطبقت عينيها إلى الأبد، ولم يكن يدري، على شدة ما كانت تكدّره وحدّة ما كان يدور بينهما، أن فقدها سيزيد في هذا الفراغ الذي يحسّه في الحياة.

وهنا – فلنسلم العجوز الصالحة إلى ذمّة التراب ولنودّعها الوداع الأخير كما ودّعها حفيدها، لننصرف إلى أمر هذا الفراغ الذي كان يحسّه صاحبنا في الحياة، ولننظر إلى ما كان وراء هذا الفراغ من فكر وتأمّل طويل انتهى بالشاعر إلى ما انتهى إليه: أن الطرق كلها تقود إلى غير غاية، وأن من ينعتون طريقه بأنها لا تليق إنما ينافقون.

ولعلّ هذا الفكر والتأمل الطويل لا ينجليان لنا على خير وجه بمقدار ما ينجليان في مذكرات سنفرض أن صاحبنا تركها في مخطوطة رثت على الأجيال، ولكن تحدّرت إلينا منها بقايا كقطع من سفينة تحطّمت قديماً في البحر، لتقذف الأمواج ببعض أخشابها إلى شاطئ من شطآن العصور المقبلة.

من مذكرات ديك الجن

١

اليوم – وقد أصبحت في سن الرشد – أتممت تصفية الوصاية التي كانت عليّ لعمي... ما أطول ما مطلني قبل أن رضي بالقعود لإنهاء الحساب وردّ كل حق إلى صاحبه. ما أكثر ما فصّل وبالغ في هذه النفقات التي يقول إنه بذلها عليّ وعلى جدّتي أيام وصايته. ثم ما أكثر ما ضاءل من قيمة الغلال التي تدرّها بساتيننا. وتحدّثني جدّتي أن لوالدي عنده ديناً على الذمة. فهذا قد أنكره. وأجرى الحساب بحيث بقيت له عندي بقية من النفقة التي بذلها علينا.

فقلت: إن غلال أرضنا تكفي نفقة عشرين شخصاً. فانتهرني أبو الطيب قائلاً: هل تحتجّ؟ لولانا لما بقي على جلدك قميص. وبعد، فيا ضيعة هذا الإرث الموفور الذي خلفه أبوك لسفيهٍ خفيف العقل مثلك!

فلم أجبه بكلمة. إنه تاجر وأنا أمقته. أحتقر هذا البريق الشره الذي

يلمع في عينيه كلما نظر إلى دينار في كفّ غيره، حتى في كفّه.

ووافقت أن أتنازل لعمي عن دار لنا إضافية في أجد أحياء المدينة لقاء ما يدّعي أن بقي له في ذمتي من المال الذي أنفقه علينا أيام الوصاية.

ليأكل ويشرب ابن عمي الدنانير! وليحمل عمي الدور في كفنه إلى القبر!

٢

فرغت الساعة من قراءة وصف لوقعة كربلاء[١]... وحشية فاقت الحدّ! أربعة آلاف من جنود بني أمية، الظامئين إلى الدم، يضربون النطاق على الحسين – عليه السلام! – ومائتين من أتباعه بمن فيهم الحرم والأطفال، فيقطّعونهم بسيوفهم ويحملون رأس سيد شباب الجنة[٢] إلى دمشق. يا لطغيان الباطل على الحق! أيُمنع من خلافة رسول الله أبناؤه ويستبدّ بها أعداؤه ومن حاربوه في دعوته وينكّلون بأهل بيته؟ لقد اشتفيت بما صنعه سيف أبي مسلم، إذ دكّ ملك بني أميّة دكّاً. واشتفيت بما صنعه السفّاح أول بني العباس، إذ دعا بقية الوجوه من بني أميّة إلى وليمة، فأولم على أنينهم ودمائهم!

١ بلدة في العراق على نحو خمسة وعشرين ميلاً شمال شرق الكوفة. وحدثت وقعة كربلاء سنة ٦١هـ (٦٨٠م).

٢ في حديث للرسول أن الحسن والحسين، ابنَي فاطمة، هما سيّدا شباب أهل الجنة.

لكن ما الفائدة؟ تنسلخ الخلافة عن الأمويين فيتقمصّها العباسيون. وهؤلاء أهل البيت – أهل الخلافة وأصحاب الحق فيها – يثورون على المنصور، يقودهم عبد الله بن علي، فيضربهم المنصور بأبي مسلم. ثم يضرب أبا مسلم نفسه. ثم يثور أبناء عبد الله: إبراهيم ومحمد (النفس الزكية) فيبطش بهما المنصور... ويرهف حكيم جسور كابن المقفّع يراعه لتقويم اعوجاج السلطان وتيقيظ الرعية وتجريئها، فإذا بابن المقفع هذا يدخل يوماً على سفيان المهلبي، والي البصرة من قبل المنصور، فلا يُرى حياً ولا ميتاً بعد ذلك اليوم[1]. ويُقال: أحرقه سفيان بالنار بل زجّه في بئر وردم عليه الحجارة بل خنقه بالحرارة والدخان في حمام موصد! من يدري؟

... ما الفائدة؟ لقد كتبت العزلة والنكبة والغربة على الحق في الدنيا! ويظن صديقانا الهاشميان في السلمية: أحمد وجعفر، أن سيحقّ الحقّ في يوم فتكون الخلافة للعلويين. ويرغبان إليّ أن أكون كالكميت بن زيد الأسدي[2] – شاعراً يصرف جلّ شعره إلى مدح آل البيت والدعوة لقضيتهم. على أن للكميت عصباً للمقارعة لا أجده فيّ. وربما ضربا لي مثل دعبل الخزاعي[3] وتجرّده لهذه الغاية. فعافاه الله من قرم عنيد على الاضطهاد ومرارة العيش!

---

١ كان مصرع ابن المقفّع سنة ١٤٢هـ (قبل ولادة ديك الجنّ بما يناهز عشرين سنة).

٢ عاش زمن الأمويين، ومات سنة ١٢٦هـ (قبل ولادة ديك الجنّ بخمس وثلاثين سنة).

٣ شاعر عاصر ديك الجنّ، زمن العباسيين، وجهر بولائه للشيعة جهراً شديداً. وكان يقول: أنا أحمل خشبتي على ظهري لا أجد من يصلبني عليها!

٣

قلبت اليوم أوراقاً فيها شعر منسوخ لبشار بن برد. أعجبتني جزالة قصيدته الميمية التي مطلعها:

أبا مسلمٍ ما طولُ عيشٍ بدائمٍ
وَلا سالمٌ عمّا قليلٍ بِسالمِ!

لكني أذكر لهذا المطلع نصاً آخر:

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائمٍ
وَلا سالمٌ عمّا قليلٍ بِسالمِ!

في القصيدة إنذار وتهديد وأبيات في الشورى أراد بها بشار أول الأمر أن يحمل المنصور على العبرة بمصير من سبقه من الملوك المطلقين وترك الاستبداد بالرأي. وكان بشار يتوقع أن يظفر أبو مسلم بالمنصور أو يُكرهه على السير في الحكم سيرة الشورى. ولكنّ المنصور هو الذي ظفر بأبي مسلم، فاضطر بشار أن يحوّل الأبيات عن أبي جعفر إلى أبي مسلم، لينجو برأسه ولو ذبذب هذه الذبذبة الدنيئة... ما كان أغنى بشاراً عن التعرض لأمور، ثم الانسياق إلى الكذب. وليته نجا! فقد فعل به سوط المهدي ما لم يفعل به سوط المنصور، وبلغ حمص خبر موته في البصرة على أثر الضرب، ولي يومئذٍ سبع سنوات من العمر، بهذا حدّثتني

جدّتي. وحدّثتني أن جنازته لم يمشِ فيها سوى أمة له سوداء تصيح: واسيّداه.

٤

الزندقة – أعني تهمة الناس بالزندقة – قولٌ ظاهره شيء وباطنه شيء. وهذه الغيرة على الدين عند بعض أولياء الأمر ليست في الحقيقة سوى غيرة على الدنيا! مثلاً: عَلامَ قتل المهدي محمداً ابن أبي عبد الله؟

أعلى الزندقة وللغيرة على الدين، كما قيل؟ لا لعمري!

لقد كانت لابن أبي عبد الله كاتب المهدي بنيّة شاعت عنها روعة الجمال. فطمع فيها المهدي. فقال لجاريته الخيزران: استزيريها. فلما أقبلت بنت أبي عبد الله دعتها الخيزران إلى الحمّام ودخلتاه معاً. فوافى المهدي على الأثر واطّلع على المرأتين في عريهما. فعالج ابنة أبي عبد الله وسألها أن تزوّجه نفسها، ففعلت، وقضى منها وطراً.

فحين عادت إلى أهلها أنبأتهم بما كان. فغضبوا، وأمروها أن تمسك عنه. ثم طلبوا منها أن تستزير الخيزران، فأطاعتهم. فما أقبلت الخيزران حتى دعتها إلى الحمّام، فدخلتاه، ففاجأهما أولاد أبي عبد الله وعلى رأسهم محمد، وقالوا للخيزران: لو شئنا لصنعنا بك ما صنعتم بحرمتنا. فتوعدتهم... وكان طبيعياً أن يأتي يوم يعتقل فيه المهدي محمداً ابن أبي عبد الله ويقتله... على الزندقة!

٥

أبو دلامة[١]... شاعر المنصور وابنه المهدي من بعده.

ما أشدّ ما أحزن للشعراء وأغضب للشعر كلما سمعت نوادر هذا الشاعر أو شيئاً من شعره الذي تتناقله الأفواه.

يظهر أن المنصور كان راضياً عليه سخياً في عطائه له. وكان المهدي يستطيبه ويختصه ببرّه. لكن لماذا؟ هذه بعض حكاياته. أمر المهدي يوماً بتخريق ثيابه وحبسه في بيت الدجاج. فلما أُخرج قال له: ما كنت تصنع والدجاج يا أبا دلامة؟ أجابه والضحكة ملء شدقيه كالرغوة البيضاء على وجهه الأسود: كنت أقوقي معهنّ يا مولاي! وفي يوم دخل مجلس الخليفة فطلب إليه أن يختار واحداً من الحاضرين فيهجوه. وكان جميع أهل المجلس أصحاب وجاهة في الدولة، فلم يرَ أبو دلامة آمن لنفسه من أن يحوّل الهجو إلى ذاته. فأنشد:

ألا أَبلِغ لديكَ أبا دلامة
فلستَ مِنَ الكِرامِ ولا كَرامة!

ثم شبّه نفسه بين لبس العمامة ونزعها بالقرد والخنزير!

أفليس للشاعر أن يكون صاحب حظوة في بلاط هؤلاء الأسياد إلاّ أن يكون مهرّجاً يستهين بذاته؟

---

١ توفي سنة ١٦١هـ (في السنة التي وُلد فيها ديك الجنّ).

٦

ما هذا الذي أسمع؟ مررت الساعة ببعض الأسواق فإذا جمعٌ ورجل يقول لآخر: اسكت يا فارسي! – وكأنه يعيّره. فقلت له: وما أنت حتى تعيّر إنساناً هذا التعيير؟

قال: إني عربي!

قلت له: "ما للعرب علينا فضل! جمعتنا وإيّاهم ولادة إبراهيم، وأسلمنا كما أسلموا، ومن قتل منهم رجلاً منّا قُتل به، ولم نجد الله فضّلهم علينا إذ جمعنا الدين[١]."

وبعد – فإن كان للفخر موضع – فقد أصاب إسماعيل بن يسار[٢]، زمن بني أميّة، حين ذكر العرب بحالهم في جاهليتهم وحالنا. فقال:

اذكُري أنْ جهلت عنّا وعنكُم
كيفَ كنَّا في سالفِ الأحقابِ؟
إذ نُربّي بناتَنا وتَدسّون سِفاهاً
بناتَكُم في التُّرابِ![٣]

---

١ العبارة بين الأهلة المزدوجة هي فعلاً من كلمات ديك الجنّ منقولة عن المصادر القديمة.

٢ شاعر فارسي الأصل شعوبي، توفي سنة ١١٠هـ.

٣ يشير إلى عادة بعض العرب في الجاهلية أن يئدوا بناتهم، أي: يدفنوهنّ ساعة الولادة على قيد الحياة. وقد نهى القرآن عن هذا الإجرام!

٧

لا يكتفي العرب بأن يفخروا علينا فيفخر بعضهم على بعض: عرب الشمال منهم على عرب الجنوب، وعرب الجنوب على عرب الشمال، وتشتدّ قبيلة في هجاء قبيلة. ولو كتب كل هذا الشعر في الفخر والهجاء بين قبائلهم لملأ القراطيس المقنطرة. يحضرني من ذلك – مثلاً – قول الطرماح بن حكم في هجاء بني تميم:

ولو أنَّ برغوثاً على ظَهرِ قَملة
يَكرُّ على صفي تميمٍ لولتِ!

فيا لها من مهاترات وترّهات! لكن حبّذا لو يقف الأمر عند هذا الحدّ. فعندنا – مثلاً – أهل حمص يمنيون من عرب الجنوب. غير أن إمام المسجد مضري من عرب الشمال. فإذا تلا الخطبة يوم الجمعة صلى على النبي في خطبته ثلاث مرات. لذلك تصعب عليه أهل حمص، وضجّوا به وهو في المسجد، وكاد يقع ما لا يليق بين أقلية مضرية تنزل حمص وأكثرية يمنية، فعُزل الإمام، فقلت في ذلك أبياتاً:

سَمِعوا الصَّلاةَ على النَبيِّ تَوالى
فتَفَرّقوا شيَعاً وقالوا: لا! لا!
ثمَّ استَمرَّ على الصَّلاة إمامُهُم
فَتَحَزَّبوا ورَمى الرِّجالُ رِجالا
يا آلَ حِمْصَ توقَّعوا من عارِها
خِزياً يَحِلُّ عَليكُمُ ووبالا

شاهَتْ وُجوهُكُمُ وجوهاً طالما
رَغِمَتْ معاطِسُها وساءَتْ حالا![1]

٨

لا يُعجِبَنَّكَ مَنْ يَصُونُ ثِيابَهُ
حَذَرَ الغُبارِ وَعَرضُهُ مَبْذولُ
ولَرُبَّما افْتَقَرَ الفتى فَرأيتَهُ
دَنِسَ الثيابِ وَعَرضُهُ مَغْسولُ!

طيّب الله أنفاسك يا صالح بن عبد القدوس! ورحمة الله عليك شيخاً علّقه المهدي على جسر بغداد مصلوباً![2]

كنت عزيز النفس لا تبذل ماء الوجه ولا تجعل الشعر بضاعةً لمن يشتري. وأُصبت يوم اتّخذت دستورك في الحياة قولك:

ولستُ بقائلٍ ما دمتُ حيّاً
أقامَ الجُندُ أو نَزلَ الأميرُ!

---

١ هذه الأبيات لديك الجنّ. والمناسبة التي قيلت فيها حقيقة مذكورة في المصادر القديمة.

٢ صلب المهدي صالح بن عبد القدوس، بذريعة الزندقة، سنة ١٦٧ هـ (ست سنوات قبل ولادة ديك الجنّ).

ديك الجن وأبو نوّاس

وهكذا انتهى صاحبنا إلى ما انتهى إليه من خطة يسلكها في الحياة... هذا عمّه يطمع بأن يمسك عنه كل ما استطاع أن يمسكه من ثروة أبيه. وهذا ابن عمّه لا يرى الدنيا إلاّ من خلال حلقة ضيقة هي الدينار. وهذه هي الخلافة في غير أيدي الطالبين يُضطهدون ويقتلون وهم أصحاب الحق فيها. وهؤلاء هم الشعراء يمدحون ويتملقون مرتزقين من البلاط أو من رجالات الدولة، وإلاّ فنصيبهم خنق الأنفاس. وهذه هي الغيرة على الدين وذريعة الزندقة تصبح ستاراً للبطش بالخصوم والمعارضين. وهؤلاء هم العرب أصحاب الدولة يتعصّبون على الفرس أو يتعصّب قحطان منهم على مضر أو مضر على قحطان. والأنكى من هذا كله أن لا بارقة بإصلاح الأمر في أجل قريب. فكم ثار الطالبون لنيل الخلافة وإحقاق الحق، فإذا هم يخفقون ويكفّنون شهيداً على شهيد. وكم نهى رسول الله عن العصبية فساوى بجامعة الدين بين عرب وفرس وعرب وعرب، فظلت العصبية مستحكمةً في الصدور.

وإذن فلمَ الجهد ولمَ العذاب؟

إن خير ما يفعله المرء أن يتنحى عن هذه الغمرة كلها، فتبقى له

نزعاته فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين صفوة الأصدقاء، على أن يمكث نائياً عن البلاط وعن رجالات الدولة، فتكون له حياته الخاصة التي يملأها بما يطيب له. وأيّ شيء أطيب من هذه الخمرة يصابحها ويماسيها، ومن هذا الجمال يستمتع به ما وجد إلى الاستمتاع سبيلاً؟ وها هي ظروفه تؤيده بحظ من أسعد الحظوظ. فهو وارث ثروةٍ طائلة ليس له فيها شريك. وإذا عرضت له الحاجة فصديقاه في السلمية أحمد وجعفر الهاشميان يكفيانه. ثم إنه فتى جميل الطلعة ظريف الروح أوتي شاعريةً موهوبة. وحمص، هذه، مدينته معزولة في إقليم من أقاليم الدولة ومزوّدة بنعمتين للطبيعة: ماء غزير وخضرة مونقة. فهل من زيادة لمستزيد؟

وإذن، فليمضِ ديك الجنّ في طريقه. فليجعل لحياته إطاراً من خضرة البساتين وصفاء المياه وموائد الخمر وقصائد الشعر ومضاجع اللذة وألحان المغنين وأوتارهم وعربدات الخلاّن أهل المجون.

ولم يلبث أن حوّل داره من صومعة موحشة، على نحو ما أرادتها المرحومة جدّته، إلى نادٍ زاهرٍ بسّام من أندية الأدب والمرح والصباحة والملاحة.

إلا أنه مع ذلك ظلت تختلف به الميول عن سائر خلاّنه أهل المجون اختلافاً بيناً. فهو يعبّ الخمر وينهل الغناء بمسمعيه، يعربد سكراً ويترنّح طرباً، دأبه دأبهم، لكنه إذا جاء أمر لذته كره أن يتناولها من كل مصدر تيسّر له وأنف فيها الشركة. فقد كان طبعه لا ينسجم والتبذل والاستهتار في هذا الشأن، فكان خلاّنه يضحكون منه لتشدّده فيتلقى ضحكهم بصدرٍ رحب يكتم في أغواره الامتعاض،

حتى ثارت ثائرته يوماً ففاجأهم بما لم يحسبوا له حساباً من قبل.

ذلك أن ديك الجنّ جبه أحدهم – واسمه ياسر – على الشراب جبهاً قوياً، فأمره بالتزام الصمت أو بالانصراف، لأن ياسراً هذا عرض في المجلس لذكر الفتى بكر. ومع أنهم جميعاً كانوا قد لحظوا إيثار الشاعر لبكر – هذا الفتى الحمصي الوسيم الوجه اليتيم من كل قرابة في الدنيا، حتى لقد جعله ديك الجنّ مولاه وألحقه ببيته – فإنهم لم يتصوّروا أن العاطفة بينهما بلغت مبلغاً بحيث لا يطيق الشاعر مزاحاً ولو بريئاً يتصل بالموضوع. ولم يكن خلان الشاعر يجهلون معنى غضبه إذا غضب. فمرّةً سبق لهم على مائدة الخمر أن شهدوه في إحدى نوباته حين قرع ابن عمه أبو الطيب منزله قرعاً شديداً ودخل عليه يكيل له قوارص الكلام، فنهض ديك الجنّ فدفع به دفعاً إلى خارج الدار وصفق في أثره الباب صفقةً اهتزت لها الجدران.

وعبثاً حاولوا جميعاً أن يستيقنوا من طبيعة هذه المودة بين الشاعر ومولاه بكر، بل عبثاً حاولوا أن يروا ديك الجنّ وهو في هذه المرحلة من العمر – على أعتاب الثلاثين – في موقف من مواقف المتعة الجسدية على نحو ما كان يرى بعضهم بعضاً إذا سكروا وعريت بشريتهم مما يميز البشرية في هذا المجال من حشمة وحبٍّ استتار.

كذلك لم يستطيعوا أن يعرفوا لديك الجنّ في هذه المرحلة من العمر امرأةً بعينها يعاطيها ما يعاطي الرجال النساء. بلى، شهدوه مرّة في الميماس ينظر فيديم النظر إلى ورد، هذه الصبية الحسناء ذات الزنار من بنات النصارى، وقد خرجت في صويحبات لها إلى ضفة النهر قصد النزهة. فكان يطيب لهم أن يداعبوه بترديد اسمها وأن

يصفوا له ما يرتسم على وجهه وفي عينيه من أخيلة وأظلال إذا هو لمحها أو سمع اسمها.

فأما الشاعر فلم يكن يتظاهر باكتراث قليل أو كثير لما يقولون. بلى، كان ينهض مشمئزاً إذا تحوّل بهم الحديث إلى لذة اشتركوا فيها أو سيشتركون، على ما تيسّر لهم أو سيتيسّر، في أحد المجالس من امرأة أو غير امرأة.

فكانوا يعجبون له أشد العجب. يشرب كشربهم ويطرب كطربهم، لا يختلف عنهم في شيء إلاّ في عزوف نفسه عن مشاركتهم في هذه الهنيهات من لذة اللحم والدم، يتناولونها على النحو الصريح الذي يفعلون.

ولو كان الشاعر متزوّجاً لقدّروا لذلك سبباً معقولاً. ولكنه غير متزوّج، وطبعه أبعد ما يكون عن اصطناع التوقر والتعفف المنافق. وإذن، ففي الأمر لغز يحتاج إلى تفسير.

ولبثوا عن إدراك هذا اللغز عاجزين حتى كان يوم وصل فيه إلى حمص قادماً من بغداد رجلٌ في زيّ الشطار بطرة قد صففها وكمين واسعين وذيل مجرور ونعل مطبق[1]، رجل يلوح أنه تجاوز الأربعين، أبيض لون المحيا عظيم الرأس، على نحافة ورشاقة في جسمه، فإذا نظر ففي عينيه بريق تشيطن، وإذا نطق ففي لسانه عذوبة وفصاحة على لثغة بالراء يجعلها غيناً، وفي صوته غنة خالطتها بحّة في حنجرته لفرط ما يجرع الخمور.

كان ذلك هو أبو نواس الحسن بن هاني، أحد ظرفاء دهره وأبعد

١ هذا الوصف تاريخي مأخوذ عن أخبار أبي نواس لابن منظور.

شعراء العاصمة العباسية صيتاً، وأكثرهم انطلاقاً مع الحياة الغاوية الخليعة، وأجرأُهم على التقاليد وأمضاهم في التجديد والخروج بالشعر من عالم وحيه الصحراوي القديم إلى عالمه الحضري الجديد. كان في طريقه إلى مصر يقصد واليها من قبل الرشيد: أبا نصر الخصيب. وقد طال السفر بأبي نواس بين بغداد وتدمر مع قلة ما في الطريق من أسباب الأنس والرونق والدعة، فعرج على مدينة العاصي ينعم فيها ولو لحظة بالراحة واللهو، وهو يعلم أن فيها شاعراً موهوباً موفور الثراء ينهج في العيش منهجه من القصف والعبث. ذلك أن نبأ ديك الجنّ وشعره كان قد تعدّى حمص وجوارها إلى العراق، ومن أحرى بأبي نواس أن يسمع به ويعلم به؟

ثم من أحرى من ديك الجنّ أن يعلم بأبي نواس، ويسمع به وقد وصل إلى حمص في يوم مع إحدى القوافل؟

على أن ديك الجنّ ركبه الهمّ أن يلقى هذا الشاعر العظيم من شعراء بغداد. فمن يكون ديك الجنّ وهو الشاعر المنزوي في إحدى مدن الأقاليم بالنسبة إلى شاعر يتبوأ مركز الطليعة في عاصمة الدولة نفسها؟ لذلك خشي ديك الجنّ أن يتعرّض للتقليل من منزلته إذا هو اجتمع بأبي نواس، فأذاع أنه منطلق إلى السلمية. ثم أوى إلى داره فقبع فيها ريثما ينصرف أبو نواس متابعاً طريقه إلى وادي النيل. وأوصى خادمته التي تفتح الباب أن تقول لكل من يسأل عنه إنه غائب في السلمية.

لكن أبا نوّاس ما كان ليهمل الفرصة فيمرّ بحمص لا يسعى إلى لقاء ديك الجنّ. فما كادت تحطّ به الرحال في مدينة العاصي، وقد دخلها من جهة تدمر، حتى راح يسأل عن دار الشاعر الحمصي.

وليس يبعد أن الدار كانت في المحلة التي تُعرف عند أهل حمص اليوم بباب تدمر[1] فسرعان ما اهتدى إليها لشهرة ديك الجنّ، وسرعان ما وقف بها طارقاً منتظراً، ليسمع بعد لحظة وراء الباب وقع خطوات رشيقة، ولينفتح له الباب عن خادمة صبيح الوجه مشرقة الطلعة قالت له:

– ما تريد؟

أجاب: أريد لقاء سيدي ديك الجنّ.

قالت: ليس هو في المنزل ولا في حمص، فقد غادرنا إلى السلمية لبعض الحاجة.

فظهر الغمّ على أبي نوّاس لهذه الصدفة غير السعيدة. وقدّر أنه ربما اضطرّ على الرحيل قبل أن يعود ديك الجنّ من السلمية هذه. فقال للخادمة:

– وإذن، فقولي لسيّدك متى عاد لقد فتنت أهل العراق بقولك في الخمر وساقيها:

مورَّدةٌ في كفِّ ظَبيٍ كأنّما
تناولها من خدِّه فأدارَها

وأنا أبو نوّاس!

وكان ديك الجنّ يصغي داخل الدار فسمع هذه اللثغة وهذه الغنّة التي تخالطها البحة. فما أسرع ما وثب إلى الباب منطلق الأسارير

١ حدثني صديق حمصي أن في باب تدمر بقايا دار خربة يسميها الناس حتى الساعة دار ديك الجنّ.

يرحّب بالشاعر الكبير الذي سعى إلى زيارته، وقد اطمأنّ الآن إلى أنّ أبا نوّاس يعجب بشعره ويعرف له فضله.

وقال ديك الجنّ بعد أن سلّم على ضيفه أطيب تسليم واستقرّ بهما المجلس:

– لقد كان لطفاً منك يا أخي أن تعرف لي هذا البيت وترويه.

أجاب أبو نوّاس: إنك فطنت فيه لما لا يفطن له غيرك.

– أهكذا تقول وأنت سيّدنا في هذا الباب؟ اسمع قولي:

تَسقيكَ كأسَ مُدامةٍ مِنْ كَفِّها
وَرديَّةٍ، ومُدامَةٍ مِنْ ثَغرِها!

واسمع قولك:

تَسقيكَ مِنْ يَدِها خَمراً ومِنْ فَمِها
خَمراً، فما لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ!

فأنى لي أن أفطن لمثل قولك: فما لك من سكرين من بد! وهو حلية هذا المعنى كله!

وهكذا تبادل الشاعران إطراءً بإطراء!

* * *

في مساء ذلك اليوم، انعقد في دار ديك الجن مجلس حافل لم يبقَ

أحد من خلان الشاعر الحمصي إلاّ تهافت عليه حريصاً أن لا تفوته فرصة اجتماع بالشاعر الطائر الصيت القادم من بغداد.

أضيئت الشموع وبسطت الموائد عليها أضاميم الريحان وألوان الطعام الشهي. واتخذ العازفون والمغنون مقاعدهم. وطافت الجواري على الحاضرين يصببنَ الخمر في كؤوسهم من أفواه الأباريق الفضية فتبدو في أنوار الشموع كأنها شلالات من ضوء يسيل!

وانطلقت الوليمة بين تأهيل وترحيب، وكؤوس تفرغ فتمتلئ، وأيدٍ تمتد إلى الطعام، وغناء وعزف تتماوج ألحانه، وضحك تتردد أصداؤه – حتى كانت سكتة، فاغتنمها أبو نوّاس سانحة قال فيها لديك الجن:

– أوليس من الغبن يا أخي، وأنت على هذه الشاعرية المبدعة، أن تأسرك هذه المدينة – وهي آسرة بسحرها! – فلا تغادرها البتة إلى بغداد، فتزيد شعرك انتشاراً وتنتفع به لدى الخلفاء ورجال الدولة؟ لئن كان يشقّ عليك فراق الميماس، ففي بغداد وجوارها متنزه قطربل، وفيها من أسباب اللهو واللذة ما قد لا تحلمون به في حمص.

فلم يكن ديك الجنّ سريعاً إلى الجواب. ولكن واحداً من أصحابه أسرع إلى القول وكأنه يريد أن يقفل، أو يفتح، موضوعاً:

– ديك الجنّ لا يحب العباسيين ولا يمضي إلى بغداد!

قال ديك الجنّ في غير ما حرج:

– هو ذاك! فأنا طالبي لا أخفي ولائي للطالبيين. لكن ليس هذا ما يمنعني من المضي إلى بغداد وزيارة البلاط وقرع أبواب رجال

الدولة. كلا – ولا يمنعني من ذلك منبتي الفارسي. على أني إذا أذن لي أخي أبو نوّاس رددت على سؤاله بسؤال فقلت له: ولمَ غادرت أنت بغداد ورحلت هذا الرحيل إلى مصر؟

أجاب أبو نوّاس: إنما أقصد واليها الخصيب، أمدحه فأنال جوائزه وأستعين بها على سوء الحال بعد أن شحت عني عطايا الرشيد.

قال ديك الجن: الحمد لله الذي أغنانا عن هذا بما ورثناه عن أبٍ كريم، فبقي لنا شعرنا نقوله كله على هوانا. وبعد، فقد سمعنا يا أخي أن الرشيد حبسك، فلمَ فعل بك ما فعل؟

– لأني هجوت مضر، وفي مضر قريش، وفي قريش الخلافة.

قال ديك الجن:

– فالحمد لله الذي أغنانا عن الدخول في هذا أيضاً.

فأطرق أبو نوّاس منطوي النفس على حسرة واستياء. تحسر إذ ذكر فقره واضطراره على الارتزاق ببضاعة من شعره، واستاء إذ قدّر أن مضيفه إنما يعرّض به تعريضاً جارحاً.

وأحسّ ديك الجنّ بما يعتلج في ضمير ضيفه، فأردف قائلاً:

– ولا تحسبنّ، يا أخي، أنني إنما أقصد نيلاً من شاعريتك. فأنت بحق معبّد هذا الطريق الجديد أمامنا، أريتنا أن الشعر ليس محض تقليد للأقدمين فنكبْته عن كثير من ألفاظهم الجافية وأساليبهم في وصف النياق والفلوات وتمجيد الحياة البدوية، ورققته ووصلت بينه وبين هذه الحياة الحضرية التي أصبحنا نحياها، فصورت متارفها وجعلت في قصيدك صدى لكثير من هذا الجدل في مواضيع الدين والفلسفة، وصدرت فيه صادقاً عن منهجك في العيش وخوالج

عواطفك وسوانح أفكارك – وإن خمرياتك ومجونياتك لعلى كل شفة عندنا. غير أنك ألقيت سؤالاً فرددت بما رددت، ولا غرض لي إلاّ أن أريك عذري في بعدي عن بغداد وبلاطها وقصورها وعزلتي في هذه المدينة النائية من مدن الأقاليم.

فآثر أبو نوّاس أن لا يتعرض له بالجواب. ودعا أهل المجلس إلى جرعة أخرى من هذه الخمرة الطيبة التي أتحفتهم بها خوابي ديك الجنّ. ثم راح ينظر بعينين خدرتهما النشوة في وجوه الجواري القائمات على خدمتهم وبأيديهن الأباريق. فتقدمت إحداهنّ لتسكب له الخمر وهي تحسب كأسه فارغة. لكنها انفتلت متراجعةً حين وجدت كأسه لا يعوزها الشراب، وأبو نوّاس يصحبها بعينيه في إقبالها عليه وإدبارها عنه. وخطر له بالمناسبة بيت لديك الجنّ فأنشد:

وتَمايَلتْ فَضَحكتُ منْ أردافها
عَجَباً، وَلكنّي بَكيتُ لِخصرِها!

فسرت في الحاضرين موجة من القهقهة. واصطبغ محيّا الجارية بحمرة عميقة قانئة. لكن لاح على وجه ديك الجن ظلّ من امتقاع. فقد غاظه على حبّه أن يردد أبو نواس شعره – غاظه أن يعبث بالجارية هذا العبث.

وهنا تنحنح ياسر أحد أصحاب ديك الجن – وقد سبقت لنا به معرفة – ثم همس همسة في أذن جاره في المجلس ابتسم لها كلاهما ابتسامةً ذات مغزى.

وتجاسر ياسر فقال مازحاً، أو كالمازح، على مسمع من الجميع:

– أسأل ضيفنا هل يعجبه أن تكون خدمتنا في هذه الوليمة على أيدي الجواري وحدهنّ؟

فالتفت إليه أبو نوّاس باسماً، عيناه تغمزان وتغزلان في خبث، وقال:

– ولمَ لا؟ وأنا أهوى الجمال المطلق.

فضحك الجميع إلاّ ديك الجنّ فإنه اغتصب الابتسام.

وعاد ياسر فمال على جاره في المجلس يهمس في أذنه. وراقبه ديك الجنّ، فحدس – وكان صادقاً في حدسه – أن هذا الهمس إنما يتصل ببكر. وبكر ليس حاضراً فقد حجزه ديك الجنّ وهو يعلم ما يعلم من سماجة بعض خلاّنه إذا سكروا، ويسمع ما يسمع من خلاعة أبي نواس في المداعبة.

وأغضبه هذا الهمس غضباً لم يستطع معه إلى السكوت سبيلاً. فقال لياسر بنبرةٍ فيها على هدوئها زجرٌ وانتهار:

– يا هذا، لقد سبق لك مرّة أن كدّرت مجلسنا. ولعلك تنوي الساعة أن تعود إلى الموضوع، فاعفنا بالله.

فبهت بعض لهذا الكلام يبدر من ديك الجنّ في مثل هذا الموقف، وابتسم بعض ولكن لم يقل أحد شيئاً، سوى أبي نوّاس فإنه تساءل:

– وما الموضوع؟

فتجرّأ واحد من الحاضرين وقال:

– ليس بشيء. فإن لشاعرنا ديك الجنّ فتى يؤثره بالعاطفة اسمه بكر. وهو لا يطيق أن يتعرض له أحد بذكر.

قال أبو نواس: وأين بكر هذا، أغائب هو؟

فجاءه الجواب: غائب.

فأحس ديك الجنّ أن الموضوع أفلت من يديه فلن يستطيع ضبطه، فارتد على أعصابه يكبحها أن تجمح به أمام ضيفه.

وشحب وجهه، وانقبضت وجوه بعض أهل المجلس إذ توقعوا الشر.

قال أبو نواس:

– أغيرة إلى هذا الحدّ يا أخي؟

أجابه ديك الجنّ بانفعال ظاهر:

– وما يدريك، يا صاحبي، ما بيني وبين بكر حتى ذكرت الغيرة. ولكني أكره الخفة في هذا الموضوع.

فبدره ياسر بقوله:

– وكأنا بك تكره الخفة أيضاً في موضوع ورد هذه البنية النصرانية التي تديم النظر إليها وتديم النظر إليك كلما تلامحتما على الميماس!

– أجل، أجل! ومتى زعمت غير ذلك؟ ومتى كنت أنت رقيباً عليّ؟

قال أبو نوّاس:

– وإذن، فهي الغيرة يا صاحبي، لم تشأ أن تعترف بها في موضوع هذا الفتى بكر لئلا تتهم بحبه على نحو ما نعرف الحب. فأمّا في موضوع هذه الفتاة، فلا بأس أن تعترف بالواقع، فتقر أن قضيتك ليست سوى الغيرة!

– فلتكن هي الغيرة يا صاحبي. لست أتبرّأ منها. أمّا الحب على نحو ما تعرفون فقد صرت إلى الإيمان بأنه ليس هو الحب.

وإياك أقصد يا صاحبي أبا نوّاس، وأقصد أصحابك في بغداد إذا صحّ ما يبلغنا عنك وعنهم. وأقصد أصحابي هنا في هذا المجلس. إن حبكم لحم يحرّه لحم. وبالدرهم قد تستأجرون هذا اللحم في جسدٍ جميل أو غير جميل تشتركون فيه، كما تبتاعون أفخاذ الذبائح من السوق وتشتركون في الأكل من صحفةٍ واحدة. شدّ ما أفسدتكم كثرة من ترون من هؤلاء الجواري المعروضات عرضاً والغلمان المبذولين بذلاً. إن حبكم لمحض ثورة من غريزة، وقد لا تنتظرون غريزتكم هذه حتى تثور بطبيعتها، فتهيجونها بالشراب الذي لا يجنحكم بل يثقلكم، فعل المتخمين يستعينون بالمقبّلات ويتسابق بعضهم على تناول فضلات بعض. فأما حبي فشتان بينه وبين هذا كله. حبي شوق روح قبل أن يكون غريزة لحم. حبي نداء قلب لقلب. ومن هذا كنت أغار. أغار على من أحب أن تحوم عليه رغبات غيري ولو ظلّت هذه الرغبات أمنية في الفكر. وأغار ممن أحب أن يمر غيري بباله ولو مروراً. ولست أعتبر حبيباً يخونني في حبّه أنه أسلم لغيري محض لحم هو جسده، بل أعتبره قد خانني في قدس الضمير...

وكان ذلك اعترافاً من ديك الجنّ لم يسبق لأحد من أصحابه أن سمعه منه.

وهكذا أتيح لخلان الشاعر أن يدركوا اللغز الذي أعياهم إدراكه زماناً. فالرجل يفهم الحب على غير ما يفهمونه. وهذا المزاج العيوف للتبذل قد تحوّل فيه إلى طبع راسخ مستحكم.

إن ديك الجنّ غيور!

قال أبو نوّاس وكأنه رجع من سفرٍ بعد انتهاء خطاب الشاعر الحمصي:

– ولكن من كان هذا مذهبه في الحب فعليه أن يأخذ به نفسه. فهل أنت، يا صاحبي، أمين الأمانة التي تلزمها سواك؟ فقد سمعت إخوانك يداعبونك – بل يغيظونك – بذكر مولاك بكر. ثم سمعتهم يداعبونك – بل يغيظونك – بذكر هذه الفتاة ورد. فأنت إذن مشرك في الحب. وغيرتك لا تعدو أن تكون اعتقاداً منك بأنك تملك من تختار أن تحبه ملكاً في الجسد والروح، ولا ترضى أن يملكك على هذا النحو.

فقطب ديك الجنّ ما بين حاجبيه وهو يقول:

– أكرر عليك يا صاحبي، ما يدريك أنت وما يدري الناس ما بيني وبين بكر. فإذا كنت أغار عليه أن يبتذله غيري فكيف تستنتج أنني أبتذله بنفسي؟ فأما ورد فيكفيك أن المسافة بيني وبينها لم تقلّ بعد عن نصف ميل على شاطئ العاصي!...

وآن أن تنفضّ الوليمة. فقد تقدّم الليل وذابت الشموع أو كادت، وران النعاس على عيون الجواري، وفتر الحاضرون عن الشرب، وسكتت حلوق المغنين وخرست أوتارهم، وامتد حبل الحديث وطال الإصغاء.

حمامة الخليج

وقف ديك الجنّ إلى سياج أحد بساتينه على العاصي مضطرب النفس بما يعترك فيه من يأس يقوى، وأمل يضعف.

وكان قبل يومين في ربيع كأبهج ما يخضرّ الربيع ويزهر، مع أن الطبيعة حوله في مطلع خريف كئيب. ذلك أنه استطاع أن ينتهز غفلةً من أصحابه كما استطاعت ورد أن تنتهز غفلةً من صويحباتها، فيدنو منها وتدنو منه لحظة وراء جذع من شجرة مشمش، ليستعيضا عن هذه النظرات بينهما على بعد، والبسمات التي هي رسول القلب إلى القلب، بمصافحة يشد فيها يدها بحرارة، ويسألها أن توافيه غداً إلى سياج بستانه حيث ينتظرها بعد أن يصرف عنه أصحابه وتخلص هي من صويحباتها. وتركته يمنّي نفسه بلقائها في نهار غد، ويغازل في خياله صورتها التي رآها لأول مرة عن كثب – صورة بنية ناهدة، في السادسة أو السابعة عشرة من عمرها، سوداء العينين سواداً برّاقاً عميقاً، بيضاء الوجه بياضاً قلته الشمس، في حركات قوامها الرشيق والزنار الديباجي المتموج مع خصرها إيقاع ألحان مرقصة حمسة!

وها هو ينتظرها عند السياج نهار أمس، وقد أبى على أصحابه أن

يوافوه زاعماً أنه منطلق إلى السلمية، ثم ها هو ينتظرها اليوم ولكنها لا تأتي، فيتقلص هذا الربيع الذي كانت فيه نفسه لتدبّ إليه وحشةٌ كوحشة هذا الخريف الأجرد حوله.

ومع ذلك فهؤلاء صويحبات ورد قد أقبلنَ إلى العاصي، وهذه أصواتهنّ الأنثوية الرقيقة تقبل عليه أصداؤها من مكانٍ منحجب قريب، بل هذا صوت ورد نفسها يستطيع أن يتبيّن نغمه العذب يحرّ دمه.

فلمَ لم تفِ بالوعد؟ ولمَ زعمت أنها ستفي به إن كانت لا تنوي الوفاء؟ وإذا كانت لا تستطيع انفلاتاً من صويحباتها، فإنها لتستطيع أن تستدرج بعضهن فتمرّ وإياهن بالسياج وتنظر إليه ولو نظرة تفيض السكينة على قلبه الملتاع.

إلا أنها لم تفعل...

ويحسّ ديك الجنّ لذع الظمأ في حلقه كهذا الظمأ في حنايا ضلوعه. ولكنه يخشى أن يفارق موضعه، فيلتفت ليرى على بعد طائفة من فلاحيه مكبين على الأرض كأنهم جذوع نبتت نباتاً من التراب فهي مغروسة فيه غرساً إلى الأبد قد قوّستها الرياح العاتية التي تعصف في سهول حمص. فناداهم يطلب منهم شربة من ماء – لا من خمرٍ هذه المرة، ويا للغرابة! – فانتبه أحدهم لندائه، لكن الشاعر تعب جداً قبل أن استطاع، وهو في موضعه، أن يفهم فلاحه أنه إنما يريد شربة ماء! ولم يدرِ ديك الجنّ لمَ أحسّ ساعة تناول الإبريق الخزفي من يد الفلاح بسخط على هذا المخلوق الذي أسهاه الكدح عن كل شيء. لقد كان صاحبنا في حاجة إلى ما يفشّ به غضبه!

غير أنه هدأ قليلاً حين روى أحشاءه بهذا القراح البارد.

وتابع وقفته عند السياج يترصّد المسالك والمنافذ، راجياً بين اللحظة واللحظة أن يزغ له وجه ورد كما تزغ النجمة على حين غفلة من سماء مقفرة. إلاّ أنه لم يظفر بغير رجل حافٍ أطلّ عليه يحمل على كتفه نصف العارية قصبة لصيد السمك، وهو قادم من الجهة التي ترتفع منها أصوات الفتيات. فقال له:

– لعلك موفق اليوم يا صياد. ولم ينتظر جوابه فأردف: ولعلك مررت بهذا المكان الذي تأتينا منه هذه الأصداء الحلوة، أصداء هؤلاء الفتيات في لهوهن.

فوقف الصياد – وكان يعرف ديك الجنّ فطالما باعه السمك – وفتح جعبة فارغة معلقة إلى جانبه وقال للشاعر: كلا، لست موفقاً اليوم، وقد تحاشت كل الأسماك صنارتي. ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى عن بضع الأسنان الباقية في مقدمة فمه، وهو يستأنف كلامه:

– فأما الموضع الذي تأتي منه هذه الأصداء الحلوة فقد مررت به. ويظهر أنك مثلي ساعٍ في الصيد، ولكن صيدك من صنف آخر، فعسى أن تكون أكثر مني توفيقاً.

قال ديك الجنّ وقد رفّه عنه ظرف هذا الصياد:

– فهل أتيح لك أن ترى صاحبات هذه الأصوات الرخيمة الناعمة؟

– كلا، فهنّ محتجبات عن العيان في خيمة من خيام ورق الحلفة[1] على ضفة النهر.

---

١ الحلفة اسم يسمّي به أهل حمص نباتاً ينبت أوراقاً مستعرضة مستطيلة على العاصي، ومنه تُصنع الخيام (القشقات) ويجدل الحصير الخشن.

– وهل هي بعيدة هذه الخيمة؟ أعني هل أستطيع أن أشرف عليها من مكانٍ ما في هذا البستان؟

فطوّف الصياد نظره يتأمل البستان لحظةً، ثم قال له: أظنك تستطيع! وأشار إليه بيده أن يذهب نحو القسم الآخر من السياج، شطر الجهة التي أقبل منها الصياد.

فشكر له ديك الجنّ هذا الإرشاد ووعده أن يكون سخياً في دفع ثمن السمك عندما يبتاعه منه في مرة آتية.

ثم أسرع الشاعر إلى حيث أشار إليه الصياد، فوقف لصق سياج البستان في هذه الناحية أيضاً. وتطلع فإذا هو يشرف حقاً على خيمة من ورق الحلفة، نصفها على يابس الأرض ونصفها قائم في خليج صغير من ماء النهر تكوّن في تجويفة داخل الضفة. وللخيمة جدران أربعة محكمة الحبك لا ينفذ منها نظر. فظلّ لا يسمع إلا أصوات الفتيات، وبينها صوت ورد يحرّ دمه بنغمه العذب.

فكيف يصنع؟

ورأى على كثب منه شجرة تين بسقت مما غذتها التربة الثريّة وتفرعت فروعاً ثمينة، ففطن إلى شيء: خلع نعله عند جذعها وتسلقها وارتفع على فرع من فروعها مقدار ما استطاع الارتفاع. وتطاول بعنقه فإذا الخيمة لا سقف لها، وإذا هو يشرف من فوق جدرانها العالية على مشهدٍ يذهب باللبّ.

رأى الصبايا قد خلعنَ جلابيبهن عن القمص الطويلة البيضاء التي تلي عري البدن. ورأى ورداً بينهن قد فعلت فعلهن، وقعدت على حافة الضفة داخل الخيمة، محلولة الشعر الحريري على منكبيها،

تنقع قدميها في الماء وتغترف منه بيديها لترشق به صويحباتها. فقال:

– إن هذا الخليج الصغير لم يعرف حمامة حامت عليه كهذه الحمامة. ولم يعرف زنابق امتدت إليه أو تدلت فيه كهاتين اليدين والقدمين.

وبحث عن ثمرة خريفية في غصن من أغصان التينة، فاقتطفها، ورمى بها بين الفتيات، وأسرع في الهبوط. لكن الفتيات استطعنَ أن يلمحنَ شخصه برغم ما دبّ فيهن من ارتباك وارتياع. ولمحته ورد فلم تخطئ معرفته. وصعد الدم إلى محياها وتذكرت أمراً لبثت يوميها الأخيرين تحاول أن تدفعه عنها وتنساه...

لبست ورد كامل ثيابها. وأعادت الفتيات ما كنّ قد خلعنَ من ملابسهنّ، وخرجنَ جميعاً من الخيمة منتشرات، واجماتٍ لهذا العبث من فتى غريب.

فأما ورد، فحين استدعت إحدى صويحباتها الحميمات إلى مرافقتها، كانت تعلم أن خطاها ستتجه بها – اختياراً أو عنوةً – إلى ذلك السياج الذي واعدت عنده الشاعر الفاتن قبل يومين.

وقالت صاحبة ورد لها: ما لك مضطربة؟ وأين تمضين بنا في هذه الجهة؟

قالت ورد: اسمعي يا أختاه، إنك عندي موضع سر... هذا الفتى الذي قذف بيننا بثمرة التين هو شاعر حمص، ديك الجنّ، وهو محبّ لي، وما زال ينظر إليّ النظرات ويبسم البسمات، حتى أُتيح له قبل يومين أن يصادفني لحظةً على انفراد، فسألني أن أوافيه في اليوم التالي إلى مكان من سياج بستانه، فرضيت. ثم لم أبرّ بالوعد!

أجابتها صاحبتها وقد وقفتا كلتاهما لتفرغا من الحديث:

– هو محبٌّ لك يا ورد. فهل تبادلينه هذا الحب؟

فتلوّن وجه ورد بحمرةٍ خفيفة وظهرت في حلقها الغصة. قالت صاحبتها: لا تتكلمي إن كان لا ينسرح لك الكلام فقد فهمت كل شيء. ولكنه رجلٌ على غير ديننا يا أختاه. وله شهرة في الخلاعة والمجون والشذوذ. فكيف تأمنين أن تفتحي له قلبك؟

– هكذا قال لي أهلي ساعة حدثتهم في أمره. فلم أفِ بالوعد الذي كان بيني وبينه. لكنه يجذبني يا أختاه جذباً قاهراً ويتسلّط عليّ بنظراته وبسماته. وقد جئت الآن للقائه لأنني لا أستطيع إلا أن ألقاه. فكوني معي بالله عليك. قفي على مقربة، لكن تواري بحيث لا يراك. فإذا أبصرت منه تطاولاً وأبصرت مني ضعفاً فاظهري وناديني للرجوع.

فوافقت صاحبة ورد. وسارت الصبيتان متغلغلتين بين الشجر. فلما أوشكتا أن تبلغا السياج، مكثت صاحبة ورد وراء إحدى الأشجار. واستمرت ورد حتى لاحت للشاعر ولاح لها واقفاً وراء السياج. فتسارعت أنفاسها وانسبلت أجفانها وثقلت خطاها. لكنها حملت نفسها إليه، يجذبها هذا النور الذي تبلّج في محياه من عميق غبطته وسعادته.

قال لها وفي صوته ونظراته حنان وجد وقسوة عتاب:

– أبطأتِ جداً في الوفاء بالوعد يا ورد، وما كنت أتصوّر أنني سأنتظرك دهراً عند هذا السياج. على أني لم أنتظر سدى. عدت فلقيتك من رأس التينة حمامةً بيضاء، في تلك الخيمة السعيدة، على الخليج الهانئ.

قالت له: عجزت أن أتخلّص من صويحباتي. فهنّ كل يوم يردنَ الخروج إلى الميماس في مثل هذا الفصل يودّعن الماء والضياء والفضاء الطلق، قبل أن يزحف علينا الشتاء بأمطاره ووحوله ورياحه العاصفة القارصة.

أجابها: حجة تتذرّعين بها. لست أصدّق!

فآثرت بعد هذا الجواب أن تصارحه. قالت بشجاعة أرغمت عليها نفسها إرغاماً:

– خفت من لقائك. وشئت أن نسدّ الطريق من أولها.

أجابها، وطغت على قسماته، لهذه المباغتة، سحابة من كدرٍ قاتم:

– ولماذا؟ لست أريدك إلا لأمرٍ حلالٍ يا ورد، أكون زوجك وتكونين زوجتي.

فطأطأت رأسها ناظرةً إلى صدرها لا إلى الأرض، فتنبهت عينا ديك الجن إلى سلسلة ذهبية تنحدر من عنق الفتاة إلى وسط الصدر وتنتهي بصليب ذهبي رقيق صغير. فقال لها وكأنه فطن إلى شيء:

– اعلم أنك على غير ديني. وقليلاً ما يهمّني ذلك. فللدين عندي أصل هو الحب. فحيثما وجد الحب أغنى...

– لكن ما أصنع بأهلي؟

– انظري إلى قلبك فاتبعيه. ولو كنت أرضى لك أمام الناس أن تكوني معي بشرع الحب وحده، لما عناني أن تبقي على دينك أو تنتقلي عنه. لكني أريدك زوجةً على الشرع.

فسكتت ورد سكوتاً طال. وكأنها على سذاجتها وصغر سنها تقدمت في تلك الهنيهة مرحلةً في العمر ونما بها الذهن، فهي

تدرك أنها في مشكلة، وتحسّ بالحيرة والعذاب. أتقول لشاعرها أن يصرف الهم عن إمكان هذا الزواج وهي تحبّه كما يحبّها حبّاً قوياً لا شبهة فيه؟ أم تقبل ارتماءً في ذراعيه، بلا عقدٍ تعقده، على أن تلزم دينها ويلزم دينه، وذلك شرّ الأمور عند الناس الذين يجدون الأعذار لأنفسهم دون سواهم؟ أم تدعوه إلى ترك دينه وذلك أبعد عن العقل في موقفها وموقفه في محيطهما وزمانهما؟

كلا! إنها تنتقل إلى دينه والسلام!

وهكذا تراجع سائر الدين في خاطر ورد أمام دين الحب.

ورفعت نظرها إلى ديك الجنّ فوجدته على أمضّ من الجمر لهذا السكوت الطويل الذي استغرقت فيه استغراقاً. ولم تلبث أن أزهرت على شفتيها ابتسامة طفيفة قالت له معها:

– ولنفرض أني تبعت قلبي، فتبعتك، فكيف أصنع بهذا الذي شهرت به من خلاعة ومجون وشذوذ؟

فأجابها وقد سرّى عنه ما آنس من لينها:

– هل تعرفين، يا غزالي، المثل القائل من راقب الناس مات غمّاً؟ وأنا أقول من صدّق الناس مات في غمٍّ أشد!

فأطلقت ضحكةً رخيمة قابلها الشاعر بضحكةٍ مطمئنة من أعماق القلب. ومدّ يده فوق السياج فتلقتها بيدها في حركةٍ عفوية لا تردّد فيها. وتعانقت عيونهما في نظر طويل تعرّى به قلباهما من كل غشاء.

قال لها ويدها الزنبقية مضغوطة في يده:

– أتأتين معي الساعة فنذهب نوّاً إلى القاضي؟

فتلاقت أهداب عينيها في إغماضةٍ عذبة ذاهلة من كل شيء.

فضرب الشاعر السياج بيده الأخرى ضربةً قوية لا يعي ما قد يحدثه له ذلك من ألم. ثم رفع رجله فوطئ بها السياج وطءاً. وفي مثل خطف البرق تناول ورداً من خاصرتيها على مدار زنارها الديباجي، وحملها عبر السياج وانطلق بها في البستان متكئة الرأس على كتفه، ملقاة اليدين على منكبيه.

فعلت في المكان صيحات ذعرٍ وهلع. فقد خرجت صاحبة ورد من مكمنها تهتف بها أن تفلت من يدي الفتى وترجع إلى رفيقاتها، فهنّ بانتظارها.

فلم تجبها ورد بكلمة.

لكن أتاها صوت ديك الجنّ مجاوباً: لا تنتظرنها يا صبايا. وقولوا لأهلها تزوجت ديك الجنّ!

وهكذا عادت الفتيات في ذلك اليوم، من ذلك الخريف الكئيب، وهنّ أنقص عدداً بواحدة.

أما ديك الجنّ فقد خُيّل إليه أن الأشجار العارية برعمت وتفتقت براعمها عن زهرٍ صارخ اللون.

وأما ورد فلم تفتح جفنيها لغبطتها وخوفها من هذا البساط الغيمي السحري الذي خُيّل إليها أنها تسبح عليه بين الأرض والسماء والنسيم والشعاع.

ورد في دار ديك الجن

يقال: الأوقات السعيدة ليس لها تاريخ يكتب.

فلو شئنا أن نكتب تاريخ هذه السنوات الأربع أو الخمس، الأولى، التي انقضت على زواج ديك الجنّ بورد لما وجدنا ما نقوله سوى أن حياتهما استمرت على نمط لا يتبدّل من الرغد الوثير والصفاء النضير.

فهذا ديك الجنّ كعادته يقول القصيد ملهماً، ويشرب الخمر، ويجلس مجالس الأدب، ليفرغ من ذلك كله إلى هذه الفتاة الساحرة التي لم تعدل بحبها له ولشعره لا أهلاً ولا ديناً – هذه الفتاة التي دخلت على فراغ عيشه فملأته، وطردت عنه أيام النهكة والسأم وليالي التخمة باللذة المصنوعة.

وشدّ ما غمر نفس ورد بالغبطة والسعادة أن يشغف ديك الجنّ بهذا الخال الحيّ على خدّها، فلا يفتأ يداعبه ويلثمه في نهم. وشدّ ما أطربها أن تسمع منه رقائق الشعر التي نظمها فيها قبل الزواج، أيام الغزل من بعيد. وقد حفظت من هذه الرقائق مقطعين تنشدهما في خلواتها بل تغنيهما، على لحنٍ ترتجله، غناءً خافتاً لنفسها وللجدران

من حولها. فأول هذين المقطعين قول ديك الجنّ.

لمّا نَظَرْتِ إليَّ عَنْ حَدَقِ المَها
وبَسَمْتِ عَن مُتَفَتِّحِ النُّوّارِ
وَعَقَدْتِ بَينَ قَضيبِ بَانٍ أهْيَفَ
وَكَثيبِ رَمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنّارِ
عَفَّرْتُ خَدِّي في الثَرى لَكِ طائعاً
وَعَزَمْتُ فيكِ عَلى دُخولِ النَّارِ!

وثانيهما:

لا ومكانِ الصَّليبِ في النَّحْرِ
منكِ ومَجرى الزُّنّارِ في الخَصرِ
والخالِ في الخَدِّ إذ أُشَبِّهُهُ
وَرْدَةَ مسْكٍ على ثَرى تِبْرِ
وحاجِبٍ مدَّ خَطَّهُ قَلَمُ الحُسْنِ
بِحِبْرِ البَهاءِ، لا الحِبْرِ
وأُقحوانٍ بِفيكِ مُنْتَظِمٍ
عَلى شَبيهِ الغَديرِ من خَمْرِ!

وفي الآن نفسه انصرفت ورد إلى هذه الدار الرحبة الملأى بأنواع الأثاث ترتبها وتحوطها بألوان البهجة. وكانت الدار على طراز الدور في حمص مبنية في أساسها، حتى ما فوق الأرض بقليل، بالحجارة البركانية السوداء، ثم تأتي قوالب الطوب بألوانها الفاهية. وكانت ساحة

الدار الخارجية مبلطة بهذه الحجارة البركانية نفسها، فأنشأت ورد – لتخفيف هذا السواد – أحواضاً غرستها بالكرم والياسمين وجعلت له قباباً يعرش عليها فيونق العين باخضراره ويشرح الصدر بفوح أزهاره.

وسارت ورد سيرةً رقيقة في هؤلاء الجواري اللواتي وجدتهنّ في الدار. والعجيب أنها لم تشعر إزاءهنّ، أو إزاء واحدة منهنّ، بغيرة أو بما يشبه الغيرة، على كثرة المزاح الذي كان يدور بينهنّ وبين ديك الجنّ. لقد كانت مطمئنة إلى أن شاعرها يحبّها بين النساء حباً لا موضع له لسواها، بل أنها شملت بعطفها الخاص جارية منهنّ اسمها دلال، كان ديك الجنّ كذلك يشملها بعطفه الخاص. واصطفتها صديقةً تأذنَ لها في ولوج حجرتها ترتب أثاثها وتبثها الأحاديث.

لكن ورداً لم تستطع أن تشعر بشعور الانطلاق نفسه إزاء هذا الفتى بكر، ولم تستطع أن تجد له سبب وجود في هذا البيت، فهو لا يعمل عملاً ما إلاّ أن يعنى بشبابه – وشبابه جميل – وإلاّ أن يسكر يوماً بعد يوم، عابثاً بأموال سيده في دالة غريبة مريبة. وطالما لمحته يتمشى في ساحة الدار فيلتفت نحوها بعينين جريئتين، فتحتجب عنه وراء ستائر مخدعها، فيبقى في مكانه منتظراً أن تطل من جديد.

على أن أمر هذا الفتى ما كان ليستوقفها إلاّ عرضاً، لولا أنها عثرت صدفةً على أوراق قديمة فيها شعر لديك الجنّ، فقرأت فيما قرأت هذا المقطع الذي أدار بها الأرض دوراناً محموماً وزلزل عليها طمأنينتها زلزالاً:

دَعِ البَدْرَ فَلْيَغْرُبْ فأنتَ لنا بَدْرُ
إذا ما تَجَلَّى من مَحاسِنِكَ الفَجْرُ

وإمّا انقضى سِحْرُ الذينَ ببابل
فَطَرْفُكَ لي سِحْرٌ وريقُكَ لي خَمْرُ
ولو قيلَ لي قُمْ فادْعُ أحسنَ من ترى
لَصِحْتُ بأعلى الصَّوتِ: يا بَكرُ، يا بَكرُ!

فما معنى هذا؟ ما معنى هذا؟ أيمكن أن تكون الأبيات في بكر إياه؟ أيمكن أن يكون ما يمضي إليه ذهنها مع الأبيات صحيحاً؟ يا لخجلتها إذن! يا لجرحها العميق في كل شيء، في حبها، في أنوثتها، في كبريائها وحرمة شاعرها في نفسها!

وشاءت أول الأمر أن تصارح ديك الجنّ مصارحةً قاسية. شاءت أن تسأله الحقيقة فيقولها لها، مهما تكن فجة مؤلمة بشعة مهينة... لكنها بعد قليل نكصت عن هول ما عزمت عليه. خافت أن تكون الحقيقة كما تصورتها. خافت أن تحرج ديك الجنّ فتحرج نفسها، وتحوّل دنيا سعادتها إلى أنقاض بهذا الإحراج. وبعد، فقد يكون هذا أمراً تخيّله شاعر، أو تساهل به ديك الجنّ أول عهده - عهد الغريزة العمياء.

فلتتريّث إذن. ولترقّب.

ولهذا أعجب ورداً أن تأتي الجارية دلال أمامها على ذكر بكرٍ لمناسبة من المناسبات. وما أسرع ما اغتنمت ورد الفرصة فسألت جاريتها:

- ومن بكر هذا؟

أجابت دلال بعد تمهّل:

- ألا تعرفينه يا مولاتي؟

– نعم أعرفه. فقد لمحته مراراً يتبختر في الدار. وأعلم أنه مولى سيدك ديك الجن، لكن ألا تعلمين عنه شيئاً أكثر؟

فاحمرّت دلال وهي تنظر في عيني مولاتها احمراراً غمّ ورداً. فقد انتقل بها الخاطر فوراً إلى أن ريبها في بكر ليس وهماً من الأوهام، وأن الشعر الذي قرأته صحيح في دلالته ومغزاه. واعتقدت أن هذه الجارية إنما تعلم شيئاً تخفيه وتخجل به، فلذلك احمرّ وجهها هذا الاحمرار المثير.

غير أن واقع الأمر كان بعيداً عن العلاقة بهذا كله. فإن دلالاً تجد في قلبها عاطفة نحو بكر، وترجو أن يبادلها الفتى الوسيم الأنيق هذه العاطفة. وإنها لتخشى أن يكون النبأ قد اتصل بمولاتها.

ولكن لمَ الخشية؟ فإذا أحبت دلال بكراً فليس في الحب ما يعيب. وهذه مولاتها تعشق ديك الجنّ ويعشقها، فهل عابتهما هذه العاطفة العنيفة بينهما؟ كلا!

وإذن فلمَ لا تبوح دلال لمولاتها بحقيقة ما يختلج في نفسها نحو بكر. فمولاتها تشملها بالعطف الصادق. ومولاتها جديرة أن تفهمها خير الفهم. وقد تستطيع أن تصنع شيئاً في سبيل التقريب بينها وبين من تحب، فيتزوّجها بكر، ويعينهما ديك الجن بفضلات من ماله.

وعزمت أن تصارح مولاتها فوراً بالأمر. إلا أن ورداً نفد صبرها فسبقتها إلى السؤال بلهجةٍ لا تخلو من جفاف:

– ولماذا احمرّ وجهكِ هذا الاحمرار يا دلال؟

فأجابتها دلال مبغوتةً:

– إني أحب بكراً يا مولاتي! أحبه!

واستعجلت في الانصراف.

فاستمهلتها ورد وقد ساعدها ذلك على تبديد شيء من العتمة السوداء التي غيّمت على نفسها. قالت لها:

– لا تضطرّبي يا دلال، فليس في الحب عيب. لكن حدّثيني، أيبادلك بكر هذا الحب؟

– لا أدري.

– على كل حال، سأبذل جهدي أن أقرب بينكما. وسأكلّم سيّدكما في الموضوع.

فأهوت دلال على يدي مولاتها تقبلهما شاكرةً ندية العينين بالدموع. ثم قالت لها:

– سيّدي أيضاً يؤثرني بهذا العطف الذي تؤثرينني به. وقد نظم لي أبياتاً حلوة أغنيها في بكر، فهل تعرفينها يا مولاتي؟

وراحت الجارية تنشد الأبيات في تطريب حبي خفيض.

وأصغت ورد إلى هذه الأبيات التي كانت قد عثرت عليها في تلك الأوراق القديمة لديك الجنّ وأحسّت في صدرها بشبوب كشبوب النار. على أنها وجدت مخرجاً تقنع به نفسها الحريصة على الاقتناع. فقالت: ما أجدر هذه الأبيات أن تكون على لسان هذه الجارية!.. وبعد، فما أغناها عن التماس الحقيقة في هذا الشأن وفتح باب لهذا العذاب ينشب أنيابه في ضميرها وسعادتها. فلتفرح بهذا المدار الذي دارته الأمور. ولتسعَ في تزويج بكر بدلال، فينتقلا عنهما إلى منزلٍ آخر، وينغلق هذا المهبّ الذي لا تزال تهبّ منه عليها لوافح من شقاء جهنم!

سكرة شؤم

قال أصحاب ديك الجنّ له مرةً وقد وقع الشتاء:

– إنك منذ أن تزوّجت بهذه النصرانية أصبح أكثر شغلك بها، وأصبحت عنّا في مثل انقطاع، تتحاشى أن تكثر لنا من عقد مجالس الشرب في دارك على نحو ما كنت تصنع من قبل في كل يوم. وقد تقنا إلى نهار نأوي فيه إلى دارك من برد هذا الشتاء، فمتى يكون ذلك، واجعله قريباً!

قال ديك الجنّ:

– إذن فتأتون غداً.

... وهكذا وفد على دار ديك الجنّ صباح اليوم التالي رهط الخلان، فتجاوزوا بسرعة هذه القباب التي عرّشت عليها أضلاع الياسمين والكرم وتعلقت بها من المطر قطرات بلورية، ليدخلوا الدار فيجدوا فيها الدفء والمرح والنشوة، والطيب والشبع في هذه المتكآت الوثيرة بين الجواري الساقيات والخمرة المعتقة والمجامر العنبرية والصحاف المحملة.

وحضر المجلس هذه المرة فيمن حضر بكر. فما أسرع ما لحظ

ذلك ياسر، وما أسرع ما همس لأحد أصحابه: أترى؟ لقد أصبح ديك الجنّ أقل تشدّداً!

وكان ديك الجنّ لا يزال منصرفاً إلى الترحيب بالخلان. فلم تلفته هذه الهمسة من ياسر. وكان مستحيلاً أن تجرّ البادرة ذيولاً لولا أن ياسراً فهم من حضور بكر، ورضى ديك الجنّ بهذا الحضور، شيئاً وافق نفسه. فجعل بعد أن قعد الجميع للشرب يفرغ الكأس في جوفه تلو الكأس، ويختلس النظر في جهة معينة اختلاساً أول الأمر، حتى إذا توقح به سكره جعل لا يخفي في بريق عينيه هذه البهيمة التي استيقظت فيه. وقليلٌ من عناه في غمرة هذا الشرب والطعام والحديث الفكه سكر ياسر وعبثه الثقيل الممقوت، إلا اثنين هما ديك الجنّ والجارية دلال. فقد راح الشاعر يتأمل ياسراً تأمل ساخطٍ محنق، وراحت دلال وهي قائمة بالإبريق تسبق ياسراً بعينيها إلى وجه بكر لتكسر عنه بنظرها الغاضب الواله نظر هذا الحيوان المبتذل.

غير أن ذلك كله لم ينجع في ياسر. وبدا على بكر أنه في قرارة نفسه غير كارهٍ لما يراه من توقح ياسر، وثورة مولاه، وغيظ الجارية وتهالكها. فشدّ ما كان بكر مدركاً لجماله، وشد ما كان به – على رجولته – شيء من طبيعة الأنثى التي يعجبها أن تحدث بسببها الأحداث.

وإذا بياسر ينهض والكأس بيده، فيمشي مترنّحاً مقهقهاً وقحاً، يريد القعود إلى جانب بكر. فحدجه ديك الجنّ حدجةً صارمة، وانتفخ عرق في مقدم جبينه كاد ينشق، وقال له:

– مكانك يا نذل، يا مفسد المجالس! فكرت أن أطردك من داري

ساعة رأيتك تدخل، لكني كرهت أن أبدأ بهذا التخييب للأصحاب الذين جئت معهم. أمّا الآن فاخرج.

وتجرّأت دلال حين رأت سيّدها ينفجر هذا الانفجار، فتقدمت فدفعت بياسر في صدره إلى وراء، فانقلب أرضاً وتدحرجت كأسه لافظةً ما فيها.

فهبط على المجلس وجومٌ كثيف عميق. ووقفت دلال لا يهمّها إلاّ أن تنظر إلى بكر، وقد ساءها أن يمكث في مكانه متسلياً، لا يثور لهذا التحقير الذي ألحقه به ياسر حين فكّر فيه هذا الفكر. وكان يخيل لها أن باستطاعة بكر أن يصفع هذا الحيوان المتبذل صفعةً تطويه على ذاته وتطرحه أرضاً كصرة من خرق.

لكن لم يطل على المجلس هذا الوجوم الكثيف العميق الفجائي. فإن ياسراً حاول أن ينهض شاتماً متوعداً، فلطمته دلال على رأسه بالإبريق، فأطلقها ديك الجنّ ضحكةً هستيرية من التشفي. وهبّ الجميع، وقد رموا كؤوسهم، يدفعون الجارية، التي هاجت بها النقمة، عن السكران الخائر الطريح.

وكانت ضجة من صياح، وقرقعة من كؤوس وصحاف وأباريق يصطدم بعضها وبعض أو يتحطم تحت الوطء الشديد... إلى أن أمكن جرّ ياسر من الغمرة، فجيء له بالماء ينعشه وأوقف على رجليه. وأسفرت الجلبة عن ديك الجنّ قائماً في الوسط بين أصحابه. أما الجواري فقد انسحبنَ ومعهنّ دلال.

وقال أصحاب ديك الجنّ له وهم يهمون بالانصراف:

– سكرة شؤم يا ديك الجنّ.

أجاب الشاعر مشيراً إلى ياسر بانفعال عنيف:

– أجل، سكرة شؤم، لوجود هذا الوغد بينكم.

... في هذه اللحظة، سُمع على الباب الخارجي من الدار قرعٌ شديد بإصرار لا يفتر.

قال ديك الجنّ:

– إمّا الشرطة، وإمّا...

وأمسك عن إتمام الكلام، وتقلّصت عضلات وجهه تقلّص اشمئزاز. فقد كان على علم بمن يمكن أن يزوره مثل هذه الزيارة الثقيلة.

وللحال أطلّ على المجلس ابن عمّه أبو الطيب بطلعته المكروهة، وقد بلّ المطر ثيابه وعلق رشاش الوحل بقدميه وأذياله، فحيّا الجميع بصيحة انتهار:

– ويحكم! ما هذا الصخب المنكر الذي طار خبره في الحيّ؟

ودنا من ديك الجنّ فهزّ سبابته في وجهه وقال:

– يا سفيه! أبهذا الجزاء تجزي أباك الذي أورثك هذه الثروة؟

فصاح به الشاعر:

– الثروة! الثروة! لا أشبعك الله! امضِ عني. من دعاك إلى بيتي؟

فقاطعه أبو الطيب صائحاً بصوت أعلى:

– ونعم الذكر أنت لجدّنا حبيب[1]. بنى مسجداً في بغداد وأنت تجعل من بيتك حانة!

---

١ حبيب بن عبد الله بن رغبان هو جد والد ديك الجنّ، كان كاتباً أيام المنصور، يتقلّد الأعطاء، وإليه كان ينسب مسجد ابن رغبان في العاصمة العباسية.

فصرخ به ديك الجنّ: ويك، ألا تمضي عني حتى أقذف بك إلى خارج وأصفق في أثرك الباب؟

فتراجع أبو الطيب، على حدّته، نحو الباب. فإن ديك الجنّ إذا هدّد بقذفه إلى خارج نفّذ تهديده وقد سبق له أن فعل.

وانصرف أبو الطيب وهو يقول لابن عمه:

– سترى!

وكان أول من انصرف في أثره ياسر.

ثم ما هي إلا دقائق حتى خلا المجلس من كل غريب. وقام بكر فخرج هو الآخر. فبقي ديك الجن وحده غارقاً في عبوسه، لا جليس له إلاّ هذه الأباريق والكؤوس والصحاف المبعجة على الأرض، البليلة بالخمر المصبوبة.

لكنه خرج بعد لحظات على هذا العبوس الكثيف ليستقبل ورداً، وقد سمعت الضجة وعرفت تفاصيل أسبابها من دلال، فأقبلت وفي نفسها أشياء. وانبسطت على وجه ديك الجن إشراقةٌ طافحة حين رأى امرأته مقبلة عليه. وهل كان له إلاّ أن يشرق محيّاه ويتلقاها مرحّباً، ثم يتناول هذا الخال الصغير في وجهها فيداعبه ويلثمه؟

فبدرته بقولها حين وقعت عيناها على الآنية المهانة المبعثرة في الأرض:

– لست أطيق، يا ديك الجن، أن أرى أواني منزلنا يصيبها مثل هذا التشويه.

أجابها:

– لن يكون بعد اليوم في دارنا، يا حبيبتي، ما كان.

– لا أصدّق أنك تستطيع استغناءً عن أصحابك، وأنك أنت وأصحابك تستطيعون الاستغناء عن الدار والشرب فيها والعربدة.

– فما تقترحين إذن؟

– آنية خزفية تسيئون استعمالها كيف شئتم، فإنها أرخص شيء.

– سيكون لك ما شئت غداً أو بعد غد. وبالفعل ذكرتني يا ورد صاحباً لي خزّافاً ماهراً وفيلسوفاً ظريفاً. فهو يزعم أنه كالله!

قالت له ورد مجفلة:

– كالله سبحانه!

– نعم! فإن كلاًّ منهما يشتغل بالطين. والفرق بينهما أن الله بعد أن يقولب الإنسان من طين ينفخ فيه الروح، أمّا هو الخزّاف فلا يستطيع نفخ الروح فيما يقولب من أباريق وجرار وصحاف وكؤوس. على أن الطين الذي يعجنه الخزّاف لهذه الغاية ربما كان تراب بشرٍ اندثروا فأعاد أجسادهم إلى الظهور في هذه الصّور.

فضحكت ورد ضحكةً عصبية. وفي الواقع أنها لم تسرع إلى ديك الجنّ هذا الإسراع لتطلب تغيير الأواني المعدنية بالأواني الخزفية، أو لتسمع تندّر هذا الخزّاف. ولكنها جعلت ذلك كله تمهيداً لما تريد أن تقوله من أن بكراً يجب أن يترك الدار فيعيش في منزل لنفسه. وهذه دلال تحبه فعلامَ لا يتزوّجها؟

قال لها ديك الجنّ بتعجّب حاول أن يخفيه:

– ولمَ هذا التبرّم ببكر؟ أيضايقك وجوده في شيء؟

– كلا، كلا، لا يضايقني. لكن لا أرى له شأناً في هذه الدار سوى أن يتأنق ويمشي في ساحتها، طارحاً بعينيه ذات اليمين وذات اليسار.

وبعد، أفلم يكن هو سبب هذا الذي وقع اليوم من تكدير؟

– مسكين بكر يا ورد. يتيم من كل قرابة في هذه الدنيا. وما أستطيع أن أدفع به من الدار إلى الزقاق. ولا أدري أيرغب في دلال؟

– ولمَ لا يرغب فيها؟ إنك تستطيع أن ترغّبه وتستطيع أن تساعده بالمال ليكون له بيته الخاص.

قال ديك الجن بعد تأمّل:

– ما أنا بعائق دون هذا الذي تريدين.

ومرّ بيده على حرير شعرها يمسحه بشغف وحنان. ثم قام يمشي. فلبثت ورداً هنيهةً تعانق قوامه بنظرات عينين حنونين.

ثم صفقت لجواريها ليعنين بأمر هذه الحجرة التي قلبتها سكرة الشؤم رأساً على عقب!

المؤامرة

مشى أبو الطيب ابن عم ديك الجنّ على أثر خروجه من دار الشاعر مدمدماً لنفسه لا يلوي على شيء من هذا الرذاذ الذي ينهمر عليه أو الوحل الذي يعترض طريقه أو الزمهرير الذي يخترق قميصه لينفذ من لحمه إلى عظمه. لقد كان مشغولاً عن ذلك كله بأمر طالما صدع رأسه بالفكر فيه. فهذا ديك الجن قد تزوج بهذه الصبية النصرانية فلم يرزق ولداً، والحمد لله، يرثه، ولن يرزق ولداً فيما يظهر، فسوف تُردّ ثروته إذن على أبناء عمّه. ولكن ما عسى أن يبقى من هذه الثروة، والشاعر ماضٍ في تبديدها على خلانه أهل المجون يقيم لهم الولائم السخية، وعلى هذا الفتى بكر والفتاة ورد ومن جمع في داره من الجواري؟ وقد جرّب أبو الطيب الوسائل في ابن عمه: هجم على داره فعكّر مجالسه وزجره وسبّه تهويشاً عليه وحملاً له على الارتداع فلم يفلح. وها هو في آخر مرة قد ذكّره بتقى جدّه حبيب وبنائه المسجد في بغداد، فلم يترك ذلك صدىً في نفس الشاعر السفيه اللعين، فكان أن انصرف عنه مهدّداً، ولا بد أن يكون لهذا التهديد معنى – لا بد من عمل شيء! – وإلاّ استمرت الحال على ما هي عليه، فضاعت الثروة طعاماً وشراباً

وترفاً لورد وبكر والجواري والخلان.

أجل، لا بد من عمل شيء!

وسار وراء أبي الطيّب ياسر، لا يلوي هو الآخر على شيء من مطرٍ أو وحل أو زمهرير. فقد كان محموماً بأثر هذه الكؤوس التي أفرغها في جوفه، محموماً بهذه الإهانة التي لقيها في مجلس الشاعر إذ أوقعته الجارية أرضاً وضربته بالإبريق، محموماً بلهيب هذه الحيوانية الشاذة عنده إذ حيل بينها وبين ما تتشهاه!

وجدّ ياسر في السير فأدرك أبا الطيب وقال له:

– هل تأذن لي بحديث؟

فالتفت إليه أبو الطيب ممتعضاً وأجابه:

– أي حديث لمثلك معي؟ ألست من هؤلاء الفساق الذين يأويهم هذا الفاسق ابن عمي؟

– رويدك! لو سمعت حديثي لما جبهتني على هذه الصورة؟ إني كنت الساعة في دار ابن عمّك حين دخلت عليه فأغلظت له وأغلظ لك في القول. وأنا ماقتٌ لابن عمّك مقتك، وقد سمعتك تتوعّده، فعسى أن تجدني نافعاً فيما تنويه له من قصاص.

قال أبو الطيب:

– ولكن لمَ تمقته وطريقك في الحياة تلاقي طريقه؟ وما الذي يجمع بيني، أنا المواظب على الفروض والأخلاق، وبينك أيها السكير الذي تنبعث مع لهاثه رائحة الخمر ويستعر شرر الشهوة في عينيه المجهدتين؟

– لو عرفت سبب هذا الصخب الذي ثار في بيته اليوم لما سألتني لمَ أمقته. فقد أهانني – وليست هذه بالمرة الأولى – وطرحتني إحدى

جواريه أرضاً ولطمت رأسي بالإبريق. تعال فجس بيدك أثر اللطمة... أما الذي يجمع بيني وبينك فهو المقت! كلانا يمقت ديك الجنّ، وديك الجن يمقت كلينا بل يحتقرنا. هل سمعت شيئاً من شعره فيك؟ هو يكنّيك بأبي الخبيث عوض أبي الطيب، ويقول فيك:

يَحمِلُ رأساً تَنبو المعاوِلُ عن
صَفحَتِه والجلامِدُ الوعرة

إلى أن يخاطبك بقوله:

سبحانَ من يُمسِكُ السَّماءَ على
الأرضِ وفيها أخلاقُكَ القذرة

فازداد أبو الطيب مرارةً لهذا الشعر. ووقف يراجع نفسه في أمره وأمر هذا المخلوق ياسر. فلقد ساق له الله فيه حليفاً ينقم على ديك الجن كما ينقم هو عليه. وما يعنيه أن يكون هذا الرجل سكيراً خليعاً، وأن يكون هو قائماً بالأخلاق والفروض. فهذا شيء، والأمر الذي جمع بينهما شيء آخر!

ونظر إلى ياسر، وهما مسرعان في هذا المطر والوحل والزمهرير، وقال له:

– وكيف ترى أننا نستطيع أن ننال من ديك الجنّ؟ هل دبّرت تدبيراً؟

أجاب ياسر:

– هذا شأن نفكّر فيه.

وكانا قد وصلا إلى متجر أبي الطيب. فتحول إليه أبو الطيب وعزم على رفيقه أن يدخل.

قال ياسر وقد جلس في زاوية عاتمة من الحانوت:

– أعرف ديك الجنّ غيوراً لاهب الغيرة. وقد سعد زماناً بهذه الزوجة ورد، وهذا الفتى بكر برغم ما ينكر من شأنه معه. فإذا استطعنا أن نشقيه بطريق غيرته تمّ لنا قصدنا.

قال أبو الطيب:

– عجيب والله اتفاقنا! هذا هو المجرى الذي كان يجري فكري فيه. تعني أننا نقول: بكر عاشق لورد، وورد عاشقة لبكر، وقد تهيّأ لهما أن يظل عشقهما سرّاً خفياً في هذه الدار الواحدة التي تجمع بينهما.

– هو ذاك، هو ذاك! والأمر جدّ قريب من المعقول. فتأمل عندئذٍ أي شقاء يقع فيه ديك الجنّ!

قال أبو الطيب بعد رويّة:

– لا يكفيني أن يشقى ديك الجنّ. أريده أن يكفّ عن تبديد ثروته، فتبقى لنا.

– وتريد خيراً من هذه المكيدة التي تفتقت لنا؟ إن ديك الجنّ مع هذا الشقاء لن يفرغ لأصحاب ولا لإنفاق وتبذير، فتُحفظ لكم الثروة. ولا يلبث أن يخلص من بكر على ما أرجّح. فإذا خلص من بكر وورد معاً كان ذلك زيادةً في التوفيق.

قال أبو الطيب:

– ولكنه قد لا يصدّق ما نقوله في بكر وورد.

– أنت على حق في هذا الاستدراك. فيجب أن نحبك المؤامرة بحيث لا يجد ابن عمّك بدّاً من التصديق، والرجل ذو طبعٍ غيور لاهب كما قلت.

– أصبت، يجب أن نحبك المؤامرة! فهل فكرت بشيء في هذه السبيل؟

– كلا! ولكننا لن نعدم تدبيراً من التدابير.

قال أبو الطيب:

– إذن فامضِ الآن، ففكرْ، ودعني أفكّر. ثم اتصلْ بي، وإياك أن يتسرّب عنك حديث لأحد قبل الأوان... وإن لي عجوزاً داهية ربما نفعتنا في هذا الباب.

وزحفت أوائل الليل. وغادر أبو الطيب متجره إلى البيت مهموكاً بهذه العقدة التي وصلت إليها المؤامرة بينه وبين ياسر على ديك الجنّ. وأسرع في تناول هذا العشاء القشف اليسير الذي تعوّد أن يتناوله وأهل بيته.

وتنهدت عجوز أبي الطيب على الطعام. وقالت له وهي تدفع في حلقها، دونما مضغ، بآخر لقمة من حصتها:

– أما جاء حقناً أن نذوق الحلوى بعد هذا الانقطاع الطويل كله؟

أجابها: والله فكرت في ذلك اليوم. ولكن ببالي مسألة إذا وجدتِ لي حلّها أشبعتكم غداً بالحلوى.

وهنا انصرف أهل هذا البيت الموحش جميعهم إلى النوم إلاّ أبا الطيب وعجوزه. وانطفأ السراج الكامد العليل، ولفّ المكان سكون من القبور، إلاّ ما كان يسمع من نقر قطرات المطر والتهامس بين أبي الطيب وعجوزه.

وساوس

أبطأ ديك الجنّ صباح هذا اليوم في الصحو من عميق رقاده. ولم يجد همّة للنهوض، مع أن ورداً كانت قد خرجت من هذا الفراش الدافئ فارتدت ثيابها وأكملت زينتها وجعلت تمدّ النظر خلال ستائر الحجرة إلى ما أصبح يكسو الأرض من حلة ثلجية بيضاء دقيقة.

فلما أحست بديك الجنّ يتمطّى فيفتح عينيه ويرسلها تثاؤبة طويلة، مشت إليه برفق وابتسام غنج فطبعت على شفتيه قبلة خفيفة مخطوفة، ثم قالت له:

– طاب نومك وطال اليوم يا ديك الجنّ. قم فانظر إلى هذا البياض السماوي في الأرض.

قال لها ويده على يدها:

– أوقع الثلج؟... لقد سهرنا الليلة الماضية سهراً طويلاً ونحن في حديث بكر، لذلك أبطأت في الإفاقة. ثم أراني لا أريد الخروج من هذا الفراش الدافئ خشية أن تلسعني أنفاس البرد.

قالت له مداعبةً:

– ولكن سهري لم يكن أقصر من سهرك، وإني لأحسّ البرد كما

تحسّه. هيّا انهض.

فأجابها وهو يغادر الفراش متثاقلاً ويتبسم ابتسامةً عابثة:

– وأين أنا منك يا ورد؟ قطعت الخامسة والثلاثين وأطللت على الأربعين، وأنت لم تتعدّي بعد ربيع العشرين.

فأتاه جوابها:

– أيقلقك هذا؟

وانهمك ديك الجنّ بإصلاح حاله بعد اليقظة. فلمّا انصرف إلى المرآة يسرّح شعره طال نظره في هذه الصفحة المجلوة التي تعكس له قسمات محيّاه. فرأى عناءً في عينيه وطوقاً من السواد تحتهما، كما رأى ظهور التجاعيد في صدغيه وعمق الخطين اللذين ينحدران من عند مراقّ أنفه إلى حافتي شقّ الفم. فقلقت نفسه. وتلمّس الشعرات الشائبة في رأسه، فلم يزده ذلك اطمئناناً.

لا ريب أنه طفق يهبط عن قمة الشباب. يزيد في سرعة هبوطه هذا الشرب، وهذا الحب العنيف، وهذا الشعر الذي يضنيه تطويع ألفاظه لمعانيه، ثم تطويع ذلك لوزن من الأوزان ولقافية من القوافي ربما شردت عنه ليلةً حتى مبزغ الفجر.

والتفت إلى ورد فوجدها تتأمله وهو ينظر إلى نفسه في المرآة نظرة قلقٍ لا يخفى. وتأمّل هو وجهها النضر وصدرها الممتلئ، طويلاً، حتى أحسّت بما يجول في دخائل ضميره، فكان من التسلية لها أن تكتنه مثل هذه الهواجس في نفس شاعرها، فأزهرت على شفتيها ابتسامة من صميم القلب، ودرجت إليه فجعلت ساعديها على منكبيه وانهار رأسها على صدره، متمتمةً:

– سأحبك دائماً يا ديك الجنّ، سأحبّك دائماً، فلا تساورك هذه الوساوس!

ثم أخذت بيده إلى ما وراء الستائر على نافذة الحجرة لتريه كيف أصبحت الدنيا هذا الصباح في قميص نقي ناصع من الثلج. فإذا بها ترى بكراً خرج إلى ساحة الدار يمشي على هذا البساط الأبيض ويرسل النظرات! وأبصره ديك الجنّ فقال لها:

– هذا بكر! هل رأيته؟

أجابته: نعم! ثم استأنفت قائلةً بعد سكوت: إني أعجب لماذا لا يتزوج دلالاً ويستقلّ عنّا بمنزلٍ لنفسه؟

قال لها:

– أفلَم يكن هذا في حديثنا الليلة الماضية يا حبيبتي؟ ألَم يسبق لنا أن تكلّمنا به من قبل؟

– نعم! ووعدت أن تخاطب بكراً في هذا الأمر وتقنعه!

– قلت لك الليلة الماضية إنني اقترحت عليه هذا الاقتراح. وبعد، فلا أدري لمَ يضايقك وجوده هنا؟

– خيرٌ له أن يتزوّج بهذه الفتاة التي تحبّه من أن يبقى نديم شراب، مزهواً بنفسه كالطاووس، يتمشى في ساحة الدار.

قال لها:

– تعالي نَدعُه فنحاول إقناعه معاً.

قالت له وهي غارسة عينيها في عينيه:

– فهل يجوز أن يجمعني به مجلس؟

فاستغرب ديك الجنّ سؤالها. وودّ لو أنها لم تسأله هذا السؤال، وأنه لم

يقترح عليها هذا الاقتراح. ولكن لم يبقَ في إمكانه إلاّ أن يقول لها مجيباً:
– وأي مانع يمنع؟

... واجتمعَ الثلاثة في مجلس واحد: ديك الجنّ وورد وبكر. وشعر ديك الجنّ، لسببٍ من الأسباب، أن قبضةً تشدّ على قلبه فتعصره حين تلاقت عيناً بكر بعيني ورد. وعبثاً حاول الشاعر أن يهرب من مقارنة بين شباب هذا الفتى الجميل المعافى وشباب ورد. ولبث طول الهنيهة التي استمرّ فيها الاجتماع يُنقّل نظره بين وجه ورد ووجه بكر، كأنه يرقب أن يتراءى في عيني كل منهما – وهما يتحدثان أو يصغيان – شبح شيءٍ يخشاه!

وبذلت ورد وسعها في إقناع بكر بالزواج من دلال. وآزرها ديك الجنّ. فأمّا بكر فظلّ يعد بأنه يفكر في الأمر، وظلّ لا يجزم بالقبول.

وحارت ورد لهذا العناد من بكر، برغم كل المغريات التي بُذلت له إذا هو رضي بهذا الزواج. وساورتها الشكوك في أن ديك الجنّ ربما لم يؤيدها التأييد الواجب في سبيل هذه الغاية. ثم انتقلت بها الشكوك إلى أبعد من ذلك.

غير أنها ما لبثت أن اتضح لها أمر لم تكن من قبل تتصوّره احتمالاً ممكناً. فما كادت تعود إلى حجرتها، وتترك ديك الجنّ يعالج شأن هذا الشعر الذي شغف به، حتى لمحت بكراً على الثلج في ساحة الدار ينظر إلى نافذتها بإلحاح حتى ليكاد يخترق بعينيه ستائرها المسدولة.

فأذنت لنفسها دقيقة أن تتأمّل خلال الستائر شبابه الجميل. غير أنها أشاحت بوجهها مشمئزة حين تذكرت ما يحوم عليه من شبهات. وزادت في سرّها إصراراً على وجوب إقصائه عن الدار...

قارورة العطر

تعجّب ديك الجنّ أن يسعى أبو الطيب في أثره هذا السعي الشديد في الطريق العام، يناديه ويلحّ في ندائه، حتى إذا التفت إليه لم يغلظ له ابن عمه في الكلام ولم يحاول وعظه، وإنما بشّ به بشاشة غريبة ودعاه إلى حانوته قائلاً بلهجة تلتمس التظرف:

– ليس حانوتي خمّارة يا ابن العمّ. ولكنه يؤويك فترة وقد اخترت أن تخرج في هذا الشتاء القارس. وإني لأستحق أن تزورني فنبدّل ما بيننا من جفاء، ولكن لك رأيك الذي يخالف رأيي في الحياة، وليس يعنيني ذلك إذا كان سيبقى سبباً للخصومة الدائمة بيننا.

فقال ديك الجنّ في سرّه وقد أدهشه هذا الانقلاب الفجائي:

– إن وراء الأمر شيئاً...

لكنه لم يشأ أن يقابل هذا الموقف الجديد من ابن عمّه بجمودٍ وانقباض، فقد آثر أن يتلافى سماجات أبي الخبيث، كما كان يكنيه، بشيء من اللطف والأنس، فقال له مبتسماً:

– طالما شعرت، يا ابن العمّ، بأنك ستصير إلى الهدوء والأناة والفهم بعد تلك الحدّة الصاخبة.

ودخل كلاهما الحانوت، وديك الجنّ لا يزال يرتقب ما عسى أن يكون وراء هذه الملاينة والمسايرة غير المنتظرة.

فما كاد يطمئن بهما المجلس على هذا المقعد الخشبي الخشن حتى عاد أبو الطيب فقال:

– أهلاً ومرحباً بابن العمّ!

ثم التفت إلى ناحية مظلمة من الحانوت فصاح: هبة الله! فتحرّك في الظلمة شبح غامض ما زال يتكاثف حتى مثل بين يدي أبي الطيب إنساناً سوياً غارت عيناه في محجريه ونتأ عظما خديه، فقال لأبي الطيب:

– ها أنذا. ماذا تريد؟

قال أبو الطيب ملتفتاً لديك الجنّ:

– هذا هبة الله، أمهر عطّار عرفته حمص وجميع مدن الشام. عَرّج علينا يقضي أياماً ويعرض للبيع قوارير من العطور التي استقطرها بنفسه من أطيب الزهر والنبات، ومزجها مزجاً لا يفقه سرّه سواه.

فتبسم ديك الجنّ وقد ذهب ذهنه إلى السبب المعقول الذي من أجله احتفل به ابن عمّه هذا الاحتفال. فإن ابن عمه تاجر، ولن يكون إلاّ تاجراً صغيراً خسيساً، وله مكسب في تصريف هذه العطور، وهو يعتقد ديك الجنّ شرّاءً سخياً.

على أن ديك الجنّ آثر أن يلزم السكوت عن هذا كله. أفلا يشتري السلامة من لسان ابن عمّه بقارورة عطر مهما يكن ثمنها؟

وقال لهبة الله:

– أرنا عطرك هذا.

فتداخل أبو الطيب قائلاً:

– أرنا هذه القارورة الوحيدة التي هي أنفس شيء لديك. فقد أردتها لابن عمّي خاصة منذ أن شممت رائحتها الفريدة. وابن عمّي ذو ذوق رهيف لا يعجبه ما يعجب الناس من بضاعة عادية.

فدار هبة الله فابتلعته الظلمة في أقصى الحانوت، ثم رجع بقارورة صغيرة ما كاد يرفع سدادها حتى شمّ منها ديك الجنّ رائحة رقيقة ناعمة تتغلغل في أجزاء النفس، رائحة لم يعرف لها مثيلاً من قبل، ذكّرته في هذا الشتاء بما يجتمع في أنفاس ربيع حمص من زهر ونبات وخفة نسم وبهجة شعاع.

فما أسرع ما تناول القارورة فنشقها نشقةً من كثب، ثم سدّها وهو يقول للرجل:

– حقاً إن عطرك نفيس! بكم تبيعه؟

أجابه العطار وهو يسرق نظراً إلى أبي الطيب:

– لم أشأ إكراماً لابن عمك أن أخفي عنك هذه القارورة فأريك ما دونها. لقد أبرزتها لك فوراً، مع أنها القارورة الوحيدة التي وُفِّقت في تركيبها هذا التوفيق. تصلح للأمراء والملوك!

قال ديك الجن:

– ليس هؤلاء خيراً منا. أجبني كم تريد ثمناً لها؟

– عشرين ديناراً.

فوضعها الشاعر في جيبه، لم يقل شيئاً. وأوصى ابن عمه أن يبعث إليه في الدار بمن يقبض ثمنها. وخرج يطوي بساط الثلج طياً، يفكر في هذا المبلغ الكبير الذي قبل أن يدفعه، ويفكر في ابن عمه كيف

رضي عن دفعه هذا المبلغ لأن له في الأمر مصلحة. لكنه صرف ذلك كله عن ذهنه ليتصوّر ما سيكون من فرح ورد به وبهذه القارورة من العطر الفريد.

إلا أنه ما كاد يشارف الدار فيجتاز إلى ساحتها حتى رأى منكبي بكر وقد وقف الفتى محولاً نظره إلى نافذة مسدولة الستائر، عرف ديك الجن فوراً لمن هي. ولأول مرة قست عيناه وهو يتفرس في بكر، وقال له بلهجة جافة:

– ماذا تصنع هنا في هذا البرد؟

وتابع خطاه إلى داخل الدار فانطلق إلى مخدع ورد، ممتقع اللون امتقاعاً حاول أن يخفيه، وفاجأها بالقارورة وقد رفع سدادها.

فأشرق له وجهها لهذه الرائحة الغريبة الفائقة التي تنبعث من بين يديه. وقبّلته شاكرةً وهي تتناول القارورة من يده وتحكم سدّها وتقول:

– أحسنت صنعاً. لقد نفد العطر من خزانتي. إن هذه الرائحة لا مثيل لها.

– حقاً إنها فريدة.

ولم يفتها امتقاع لونه. فقالت له:

– أظن هذا البرد الشديد قد أثّر فيك.

فلبث صامتاً ومشى إلى النافذة، فنظر من خلال ستائرها فوجد بكراً لا يزال في الساحة.

فتحوّل امتقاع وجهه إلى احمرار عميق، وقال لورد:

– ماذا تظنين بكراً يفعل في ساحة الدار في هذا الثلج؟

أجابته بهدوء مثير ولذع خفي:

– أتسألني، وأنا لا أدري ما وجود بكر أصلاً في هذه الدار؟

ودنت منه فأحاطت عنقه بذراعيها ولثمت وجهه المحمرّ، وفي بؤبؤي عينيها لألأة من غبطة خبيثة. لقد أعجبها أن تبدو على ديك الجن هذه البادرة من القلق بسبب بكر، فذلك مما يقنعه أبلغ إقناع بوجوب إقصاء الفتى عن الدار وسواء أتزوج بدلال أم لم يتزوّج.

لكن ديك الجن – والحق يُقال – وجم وجمةً طويلة عند هذه اللألأة الخبيثة في حدقتيها وهي تلثمه.

ثم خرج إلى بكر فاستدعاه وانفرد به قائلاً له وفي صوته نبرة الجزم:

– يا بكر ستتزوج دلالاً. وسيكون لك من مالي ما تحتاج إليه من نفقة. وعلى كل حال، لن تبقى في هذه الدار...

قبل الفاجعة

في اليوم نفسه الذي زار ديك الجنّ فيه حانوت ابن عمّه ومضى يحمل قارورة العطر، أقبل بعده على الثلج شبحٌ ملتفّ بعباءة فانسلّ إلى الحانوت انسلالاً سريعاً وغاب فيه.

كان ذلك هو ياسر، جاء يخلو بأبي الطيب ساعة من زمان...

قال له أبو الطيب:

– شدّ ما أبطأت في المجيء. ألعلّك تركت ما نحن فيه، أم أنساك السكر والفسق؟ لو لم تأتِ لبعثت في طلبك.

أجابه ياسر:

– كلا، لم أترك ما نحن فيه، ولا أنساني السكر والفسق، لكنني عجزت عن تدبيرٍ نحبك به المؤامرة حتى لا يجد ابن عمّك بدّاً من تصديقها.

قال له أبو الطيب وابتسم ابتسامةً كلها لؤم إبليس:

– وما أدراك أني أنا لم أوفّق إلى مثل هذا التدبير؟ لقد أرشدتني إليه عجوزي، ووعدتها لقاءه بالحلوى لجميع أهل البيت!

– فما هو؟ عجل بالخبر.

فأدنى أبو الطيب فمه حتى قارب أذن ياسر وقال:

– قارورة من عطر نفيس خاص، صنعها عطّار ماهر زعم أن ليس لديه سواها، وقد بعناها من ديك الجنّ بثمن باهظ.

– ثم ماذا؟

– إن ديك الجن سيهدي هذه القارورة إلى ورد. فإن أهداها إلى بكر، فسرّاً، لأنه يتحاشى – لا سيما أمام ورد – أن يأتي عملاً يضع علاقته بهذا الفتى موضع الريبة. ألست على حق؟

– أجل، إنك على حق. لكني لا أزال أجهل المعنى في هذا التدبير.

قال أبو الطيب:

– إن مهمتنا لم تنتهِ بعد. عليك أنت الآن أن تحمل هذه القارورة الأخرى التي تحتوي عطراً كالذي اشتراه ديك الجنّ، فتوصلها إلى ورد إن كان ابن عمي أهدى قارورته إلى بكر، أو توصلها إلى بكر إن كان أهدى قارورته إلى ورد، فيتعطر كلاهما بالعطر نفسه، ويشمّ ذلك ابن عمي، ونكون نحن قد أشعنا أن الفتى والفتاة متعاشقان يلتقيان سرّاً، فلا يبقى عند ذلك مجال شك. ومن ثم تفعل الغيرة فعلها!

قال ياسر، وقد انقدحت فجأةً في ذهنه شرارةٌ ألقت له ضوءاً على كل شيء:

– يا لهذا التدبير الجهنمي! وممّا يسهل مهمتنا أن ديك الجنّ لا بدّ أن يكون أهدى قارورته إلى ورد، فليس لبكر مع هذه الفتاة الفاتنة موضع. وإيصال القارورة إلى بكر ليس بالصعب مطلقاً، فأنا أستطيع أن أتطلبه فأعطيه إياها، وإلاّ فالجارية دلال – التي ضربتني

على رأسي بإبريق الخمر – تكون سعيدة جداً أن تستطيع تقديم هذه الهدية إلى بكر لأنها تهواه.

قال له أبو الطيب:

– لا بد من فرض جميع الاحتمالات، فكيف تصنع إذا كان ديك الجنّ قد أهدى قارورته إلى بكر؟

– إذا كان هذا – وهو غير المعقول – أمكنني أن أوصل القارورة إلى ورد بطريق هذه الجارية دلال أيضاً، فإنها وثيقة العلاقة بمولاتها. وسهل عليّ أن أنتهز فرصة خروج ديك الجنّ من الدار لأحمل القارورة إلى الجارية وأقول لها إن مولاها أوصى بها من السوق لمولاتها.

قال له أبو الطيب وربت على كتفه معجباً:

– ما كنت أتصوّرك، يا هذا، سريع الفطنة بهذا المقدار. خذ القارورة. وإياك، بعد أن توصلها إلى حيث يجب إيصالها، أن لا تعود فوراً فتنبئني لنبدأ بإطلاق الإشاعة في طول المدينة وعرضها حول تعاشق بكر وورد.

قال ياسر وابتسم ابتسامةً أشبه بتكشيرة:

– لا عليك، كُن مطمئناً.

* * *

ولكن لو كان ياسر وأبو الطيب على علم بهذه الظروف والصدف المؤاتية التي تهيئ السبيل لنجاح مؤامرتهما، لاستغنينا عن كدّ الخاطر هذا الكدّ الشديد وعن هذه الاحترازات كلّها والتحوطات.

فهذا ديك الجنّ أصبح في نفسه حقاً شيء من بكر. وهذا راكب مستعجل من السلمية يأتيه فيقول له إن صديقه الحميم جعفر بن علي الهاشمي مشرف على الموت! فلا بدّ إذن من الإسراع إلى السلمية فوراً، ولا بدّ من تأجيل ما عزم عليه من تزويج بكر بدلال وفصله عن الدار. بل لا بدّ – وهو يقطع الطريق إلى السلمية – من إعداد قصيدة في رثاء هذا الصديق الحميم الذي يُنتظر أن يودّع الدنيا بين ساعة وساعة.

وهكذا أمر ديك الجن بإسراج جواده وإعداد جهاز السفر. فلم يمضِ إلا الوقت اليسير حتى كان يخرج من حمص غارق البال في أمر هذا الأخ المفارق، وهذا الشعر الذي يدعوه إلى قوله فيه عرفان الجميل والعاطفة الحرّى الملتاعة.

وإذن، فقد بعُد ديك الجنّ عن حمص وعن داره بعداً سيطول أياماً، وفي نفسه ما فيها من بكر. فيستطيع ياسر على هينته أن يتطلب بكراً فيوصل إليه قارورة العطر، إذا كان ديك الجن لم يهدها إليه، أو يوصل القارورة إلى ورد وفق ما تكون الحال. على أن ياسراً كان بإمكانه أيضاً أن لا يكلف نفسه عناء هذا الأمر. فإن دلالاً، وقد أطمعتها إرادة مولاها الصريحة في أن يتزوجها بكر، أصبحت تستغوي الفتى استغواءً ملحّاً وتستهويه بكل ما يقع تحت يدها من ألطاف. فحين شمّت في حجرة مولاتها رائحة هذا العطر الفريد أفرغت منه شيئاً حملته إلى بكر. فما أقبل ياسر إلى الدار يحمل قارورته إلى الفتى، حتى وجد عليه رائحة هذا العطر نفسه. وبرغم أن بكراً أنبأه كيف انتهت إليه هذه الرائحة، فإن ياسراً مضى مسرعاً – بعد أن ترك له القارورة – وهو يعتقد أن العلاقة بين هذا الفتى وورد ليست كذباً

مخترعاً ولا بهتاناً مصنوعاً.

ونقل ذلك إلى أبي الطيب، فمضى كلاهما في ترويج الخبر، وضميرهما – إن كان ثمة من ضمير – مطمئن إلى أنهما لا يفتريان افتراءً ولا يظلمان ظلماً.

* * *

بعد أيام وقد هادنت السماء الأرض في هذا الشتاء القارس، وانتشرت أشعة شمس الغروب تذيب الثلج وتبث الحرارة في الفضاء والأديم، أطلّت الطريق من جهة السلمية على حمص بديك الجن عائداً إلى بيته وقد نفض كفيه حديثاً من تراب صديقه وودّعه الوداع الأخير بقصيدة من جميل الشعر[1]، إلا أنه لا يزال بليل الجفون بالدمع لا يقوى أن يدفع عن ذاكرته بيتين من الشعر نظمهما قديماً:

فإنّي رأيتُ الدَّهْرَ يُسْرِعُ بالفَتى
ويَنْقُلُهُ حالَينِ يَختلفانِ

---

١ وإلى القارئ بعض أبيات هذه القصيدة:

فَيَا قَبْرُهُ جُدْ كُلَّ قَبْرٍ بِجُودِه — ففيكَ سَماءٌ ثَرَّةٌ وَسَحائِبُ
فإنَّكَ لو تَدري بما فِيكَ مَنْ عُلاً — عَلوْتَ وباتَتْ في ذَراكَ الكَواكِبُ
أخاً كُنتُ أَبكيه دَماً وهوَ نائمٌ — حذاراً، وتَعمى مُقلتي وهو غائِبُ

إلى أن يقول:

فتىً كانَ مثلَ السَّيفِ من حيثُ جئتَه — لنائبَة نابَتْكَ فهو مُضارِبُ
بكاكَ أخٌ لم تحوِه بقَرابَة، — بلى! إنَّ إخوانَ الصَّفاءِ أقارِبُ
وأظلَمتِ الدُّنيا التي كُنتَ جارَها، — كأنَّكَ للدُّنيا أخٌ ومُناسِبُ!

فأمّا الذي يَمضي فأحلامُ نائم،
وأمّا الذّي يَبقى لَهُ فأماني!

وعبثاً تصور أن أوبته إلى الدار ولقاءه ورداً سيصرف هذا الانقباض الذي يخيّم على صدره، فإن كمده ظل يزداد كلما اقترب من حمص وظل يشعر كأن هذه الأشباح التي تصحب المغيب والمساء تكتظ في حنايا نفسه وترهقها إرهاقاً.

ولأمرٍ ما فكر أن يعرّج على صديقه، ذلك الخزّاف الظريف، ليسمع منه كيف أنه يعجن التراب وربما كان هذا التراب بشراً، فيعيدهم إلى الظهور في الوجود جراراً وكؤوساً وصحافاً وأباريق! إن ذلك لضربٌ من الخلود يعزي نفس ديك الجنّ وهو القائل:

أأترُكُ لَذَّةَ الصَّهباءِ صرفاً
لما وَعَدوهُ مِنْ لَبَنٍ وخَمْرِ؟
حَياةٌ ثمَّ مَوتٌ ثمَّ بَعثٌ،
حَديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عَمرِو![1]

وبالفعل – عَرّج ديك الجنّ على خزّافة يتسلّى ساعةً من زمان. وليته لم يفعل! فإن الخزاف لم يلبث أن وجّه إليه سؤالاً صريحاً عن هذا الأمر المنكر الذي يتحدث به الناس في المدينة ويقولون إنه يجري تحت سقف بيته بعلم منه أو غير علم.

يا للصاعقة التي انقضت على رأسه! يا للصاعقة!

---

١ ديك الجنّ في جملة الشعراء الذين يُنسب إليهم هذان البيتان.

الحب يفترس

أكثر من مرة سمع ديك الجنّ وهو يستأنف السير إلى داره ما يؤيّد هذا الحديث الذي حدّثه به الخزّاف... تحرّش به في أحد الأزقّة صبية حفاة، أنصاف عراة، ردّدوا عليه شيئاً لا يفقهونه وإنما لُقّنوه تلقيناً، صائحين به صياحاً يمزق الأعصاب:

عامل دارو خماره
وفاتحها للدعاره
عندو زوجه خوانه
ومولى عاف الأمانه!

ولولا أنه حوّل جواده عليهم وقلقل إلى جانبه هذا السيف الذي صحبه في السفر لما استطاع إلى إسكاتهم وصرفهم عنه سبيلاً. ثم أنه لمح في الليل، وقد أخذت تتكاثف ظلمته في هذه الساعة، جماعة من رجال تبادلوا الغمز حين مرّ بهم وأومأوا إلى جهته برؤوسهم، فأحس أن هذا السائل الكثيف الأحمر الذي ينصبّ في عروقه قد تحوّل إلى سعير.

وهكذا لم تكذّبه نفسه حين شكّكته في بكر هذا المخلوق الشريد الذي آواه وأدخله في نعمته ومنحه ما هو أغلى من ذلك كله: عاطفة ضنّت بشبابه على ابتذالات المبتذلين.

وفجأةً عرضت له ذكرى جدّته. وكأن كل ما بثته العجوز في نفسه عهد الصغر قد رسب فيها أعواماً طوالاً لينبعث في هذه اللحظة ويرتدي رداء الصدق الذي لا ريب فيه. فلم تكذبه المسكينة جدّته حين حذرته من النساء ومكرهنّ. وهل ورد إلا امرأة كالذلفاء لم يقف بها قلبها عند الخليفة سليمان بن عبد الملك فتجاوزته إلى أحد غلمانه من المغنين؟ ثم هل تكون ورد غير تلك الجاهلية التي نصبت عريها شركاً للفتى العامري لتجعله مكانها فتهرب من زوجها الشيخ فتخلو بعاشقها هزيعاً من الليل؟

صدقت جدّته! صدقت خبرة العجوز ببنات جنسها!

ولكن – مع كل شيء – مع هذا العقوق الذي يمازج البشر، وهذا التلون في مواثيق النساء، فإن بكراً لا يمكن أن يستخفّ بحرمته هذا الاستخفاف، وإن ورداً يستحيل أن تعبث بأمانته هذا العبث!

عاد ديك الجنّ إلى بعض هدوئه، وشاعت في نفسه نسمة من السكينة. راح ينظر فوقه إلى النجوم التي أطلعها الصحو تلك الليلة، يستفهمها هل شهدت في منزله سوءاً من بكر وورد. فالنجوم هي العيون السواهر أبد الليالي على الأرض... لكنه بغتةً فطن إلى أن هذه العيون قبل الليلة كانت عمياء بهذا الحجاب الضبابي السميك الذي نشره الشتاء على الآفاق. كان الظلام حالكاً شاملاً، وكان أيسر شيء لبكر أن يتسلل في تلك الليلات السرية الدامسة إلى

مخدع ورد فينقر الباب فتقوم حافيةً على أصابع قدميها العاجيتين فتفتح له. وثارت بديك الجنّ التصورات الذابحة. فهذا ساعد بكر يلفّ خصرها - خصر ورد! وهذا فمه يتّحد بفمها ليصبحا بعد قليل في هذا الفراش الدافئ المملق العطري. ولمَ لا يفعل بكر وهذا الشباب في ميعته يستفزه؟ ولمَ لا تفعل ورد وهذا الصبا في عنفوانه يطالبها؟ لمَ لا يفعلان والشباب والجمال لهما، ولديك الجنّ الكهولة والذبول؟

وكان قد بلغ الدار وهو في أوجّ هذه النوبة المفترسة. فلم يهدّئه منظر داره غارقة في العتمة والسكينة. وخُيّل إليه أن هذا الغطاء الكثيف من الليل والصمت يطوي تحته خيانة مطمئنة آمنة إلى أن الدار خلت من ربها... وعزم على أن يفاجئ مفاجأةً هذه الخيانة، فهبط عن جواده محترزاً واختلس الخطو إلى الباب الخارجي، فأدار فيه برفق مفتاحه الذي يحمله، ودخل يكتم حتى أنفاسه.

فماذا رأى؟

هوذا بكر على عادته التي ألفها في الأيام الأخيرة يتمشى في ساحة الدار، ينظر إلى تلك النافذة المجللة بالستائر، وخلفها، في هذه الساعة الباكرة من الليل، يُستشفّ ضوء سراج كالأضواء في سائر الغرف المأهولة من الدار. فأحسّ بثقلٍ مرهقٍ انطبقت تحته أضلاعه. فتريث لحظةً يمسك صدره ويستدرج إلى رئتيه نسمةً من هواء. ثم تقدّم نحو بكر. فلم يرعه من كل ما سمع، وما خطر له حتى الساعة شيء كما راعته هذه الرائحة العطرية التي استقبلته من جهة بكر، فجعلت خيشوميه ينفتحان وينغلقان بسرعة المنفخ في قبضتي وقّادٍ قوي يسعر النار.

إنه يعرف هذه الرائحة. اشتراها لورد ولم يدفع بها إلا إليها من يد ليد.

هوذا الشك يرتدّ حقيقةً صارخة! ولو أن ديك الجنّ سُئل عما يفعل في تلك اللحظة حين وضع يده إلى جانبه ثم جذبها إلى وراء وحرّكها حركةً أفقية، لمعت لمعاً خاطفاً، لما استطاع أن يجيب بأنه إنما يحذف رأس بكر عن جسده!

وانطلقت صرخةٌ لم يدرِ ديك الجنّ هل أطلقها هو أم أطلقها بكر. وهوى على الأرض شيء خبط الأرض بثقل. وتلوّن بلاط الدار ببركةٍ، ثم بسواقي صغيرة متعرّجة، من سائل لزج قاني.

وزاد مشهد الدم في عصف هذا الشعور الشرس الذي استبدّ بالشاعر الغيران. فانطلق يثب وثباً إلى تلك الحجرة ذات الضوء والنافذة المحجوبة بالستائر. فدفع بابها على غير وعي، وسيفه مصلت بيده على غير وعيٍ ومخضوب دماً. فبرقت في وجهه عينان ساحرتان اتسعتا دهشةً وهلعاً. ودوّت في أذنيه صرخةٌ لم يسمعها جلياً كأنها صاعدة من غورٍ بعيد... ولم يفق من ذلك كله إلا وبدنٌ ذبيح ملقى أمامه على الأرض، منشور شعر الرأس، شمعي اللون، مفتح العينين تفتيحة لا حياة فيها سوى بقية استفهام كبير مرتاع، راح يجيب عليه بما يفور على شفتيه من شعر:

أيُّها القلبُ لا تَعُدْ لهوى البيضِ ثانيه
ليسَ بَرْقٌ يكونُ أَخْلَبَ مِن بَرْقِ غانيه
خُنتِ سِرّي، ولم أَخُنْكِ، فمُوتي عَلانيه!

ثم كانت أول بادرة بدرت منه أن نظر إلى سيفه فتفل ساخطاً، كأنما فطن بعد الفوات إلى خطأ فظيع ارتكبه. لقد نسي أن يمسح السيف قبل قتل ورد، فخلط بين دمائهما. يا للخائنين! ورمى السيف أرضاً.

وبدأت تعروه الرجفة مع هذه الحمى التي تشتعل في جسمه. وطفقت تتفصد من جبينه قطرات عرق بارد.

... ذلك كله في لحظات. كان بكرٍ، ولكن كأنه لم يكن! وكانت ورد، ولكن كأنها لم تكن! ثم ماذا؟

لقد كان محتوماً أن تحس الجواري وهنّ في غرفهنّ في الدار أن شيئاً غير طبيعي يقع فيها. فخرجت دلال ترى... هذا بكر في ساحة الدار منقوع بدمه تحت بصيص هذه النجوم التي بزغت الليلة مع الصحو!

فأطلقتها صيحة ذعر. ونادت مولاتها في غرفتها التي لم تزل مضاءة نداءً مبحوحاً كأنها تنطق من حلقٍ جريح نشف جرحه على مضض وألم.

فأتاها صوت لا تجهله برغم هذه الوحشية في ظاهره والرعشة في قراره، صوت مولاها يقول لها:

– أنا قتلته! وقتلتها أيضاً! قتلتهما – قتلتهما! ويحك اخرجي إلى هنا.

فاتجهت دلال صوب مصدر الصوت، صوب حجرة مولاتها، تريد إسراعاً فيمنعها اصطكاك الركبتين، وتحاول تصديقاً أو نفياً لهذا الذي سمعته فلا يطاوعها ذهنٌ شُلّ بالصدمة عن كل اقتدار.

وانطلق لها باب الحجرة، أول شيء، عن ضفائر من الشعر الأسود منشورة على الأرض مخضوبة بالأحمر، وعن سيف مرمي، وقد شخص سيدها ديك الجنّ كتمثال حجري منصوب.

صرخت به الجارية وغلب عليها الشهيق وانسرح جدولان من الدمع على خدّيها:

ـ لماذا يا سيدي؟ لماذا؟

فانتفض التمثال، الذي هو ديك الجنّ، لتتدفّق من أعماق هيامه الجريح وعذابه المحرق هذه الأبيات:

قُلْ لِمَنْ كانَ وَجْهُهُ كَضياء
الشَّمسَ في حُسْنِه وبَدْرٍ مُنيرِ
كنتَ زَيْنَ الأَحياءِ إذْ كُنتَ فيهم
ولقَد صِرْتَ زَيْنَ أهلِ القُبورِ
بأبي أنتَ في الحياةِ وفي المَو
تِ وتحتَ الثَّرى ويومَ النُّشورِ
خُنْتَني في المَغيبِ والخَوْنُ نُكْرٌ
وذَميمٌ في سالفاتِ العُصورِ
فَشفاني سيفي وأَسْرَعَ في حَزٍّ
التَّراقي قَطْعاً وحَزِّ النُّحورِ

فلم يسعف الجارية لبّها المضعضع المصعوق أن تستوعب من هذا الشعر سوى لفظ واحد انحفر في لوحة ذهنها بأحرف من نار: خنتني! خنتني! خنتني! وقد ردّدها ديك الجنّ ثلاثاً في إنشاد البيت. فقالت له صارخةً محدّقة حتى لكادت تنقطع عروقها وتثب عيناها من وجهها:

– كلا! كلا يا سيدي! هذا كذب، كذب! سامحك الله على الجهل. أين كان حلمك؟

وتقدمت فتهالكت على مولاتها، تلثم شحوب جبينها وتنظر في فراغ عينيها وتختنق بالشهقات... فزحفت على ديك الجنّ موجة غريبة من رحمةٍ وحنان لهذا المشهد الفاجع ولما طرق أذنيه من كلام الجارية. ووجم يتأمّل محيّا ورد في بهتة الموت، ويناجي نفسه بهذه الأبيات معانداً حبه وحنانه اللذين يوشكان أن يجرّاه إلى الندامة:

ليتني لم أكُن لعَطفك نلْتُ
وإلَى ذلك الوصالِ وصلتُ!
فالذي مني اشتملتِ عليه
ألعارٍ ما قد عليه اشتملتُ؟
قال ذو الجهلِ: قد حَلُمتَ! ولا
أعلمُ أنّي حَلُمْتُ حتى جَهِلْتُ!
لائمٌ لي بِجَهلِه، ولماذا
أنا وحدي أحبَبْتُ ثمَّ قَتَلْتُ؟
سوفَ آسى طولَ الحياة وأبكيك
علىَ ما فَعَلْتِ، لا ما فَعَلْتُ!

فما كادت تتلاشى أصداء إنشاده في جوانب الحجرة التي ينشر فيها ملاك الموت جناحيه حتى سمع الشاعر نبرات ناحبة من فم جاريته تقول له:

– ولكنها لم تفعل شيئاً نكراً يا مولاي. أقسم لك بكل ما هو عزيز في الأرض والسماء.

أجابها وهو يصغي إليها ويثوب إلى نفسه:

– تعالي يا دلال، اقتربي مني. كيف تؤكدين وتقسمين أنها لم تفعل شيئاً نكراً، برغم كل ما سمعته؟

– ماذا سمعت؟

أجابها مغمضاً عينيه بجهد وألم كأنه يطبق أجفانه على شوك:

– سمعت أنها أحبت بكراً وأحبها بكر.

– كذب الذي أسمعك هذا. يا للإثم! يا لموت الضمائر! أنا التي أحبت بكراً، كما تعلم يا مولاي، وكانت عيني عليه في غيابك كله. فلم أرَ ما يريب.

وفجأةً تذكرت الجارية بكراً وقد أنستها إيّاه الفاجعة بمولاتها، فأضافت متمتمةً:

– إنك قتلته هو الآخر. سامحك الله، سامحك الله!

صاح ديك الجنّ بثورة مباغتة:

– ويحك! إمّا أنك تكذبين وإمّا أنك لا تعلمين الحقيقة! قد شممت على كليهما رائحةً واحدة من العطر.

ولم يتريث ليسمع جواباً، فقد خطر له أنه قد يكون أخطأ... دنا بلهفةٍ من ورد فتشمم رائحة هذا العطر الفريد الذي أتاها به من عند ابن عمه، وقبض على يد دلال بأصابع فولاذية فجرّها إلى خارج، وهي تولول ذاهلةً مرعوبة، حتى بلغا جثة بكر فانحنى ديك الجن يتشمم. ثم دفع بدلال فتكوّمت على الأرض فركلها صائحاً بحقد:

– أنت الكاذبة يا فاجرة. هذه هي الرائحة نفسها.

قالت له بأنين:

– تقصد، يا مولاي، رائحة هذا العطر الذي في خزانة مولاتي؟

– نعم! أنا الذي أتاها به، فكيف وصل إلى بكر؟

فصرخت الجارية مصعوقةً، إذ تذكّرت شيئاً فعلته فأدّى إلى هول هذه الفاجعة:

– أنا المسؤولة يا سيدي. اقتلني. يا لحظّي النكد! أردت أن أسترضي بكراً فسرقت له بعض هذا العطر... إن كنت لا تصدقني فتعال ننظر في حجرته. إنني أعرف القارورة التي سرقت له فيها العطر.

ونهضت تدور بها الأرض دوراناً محموماً. ومشى معها ديك الجن يتماسك أن ينهار. فدخلا غرفة بكر، فما بحثا طويلاً بأيديهما المضطربة حتى وجدت دلال قارورتها وفيها بقية قطرات. ولكن ديك الجنّ عثر على قارورة أخرى كتلك التي ابتاعها لورد.

قالت له الجارية بصوتٍ ناحب:

– انظر، هذه هي القارورة!

قال لها بصوتٍ فيه نقمة الرعد:

– ويحك، وما شأن هذه القارورة الأخرى؟

وتفرّست دلال بقارورة بين يديه كقارورة مولاتها عينها. فجمدت لا تنبس. ولكن ديك الجن اندفع وبيده القارورة إلى مخدع ورد. فلحقت به دلال تضع على الأرض وترفع قدمين من رصاص.

وفتح الشاعر خزانة زوجته. فإذا به أمام قارورة أخرى كتلك التي بيده.

فانسدل على ذهنه ستارٌ كثيف أعماه عن كل فهم. وأفلتت من

فمه ضحكةٌ جوفاء بلهاء.

على أن الستار الذي غطى فجأةً على ذهنه ما لبث أن انزاح. فتذكر ذلك الاحتفال المريب الذي لقيه من ابن عمه يوم أن مرّ بحانوته فتبعه ودعاه إلى الدخول. وتذكر العطار الذي باعه القارورة وكيف أكد له أن ليس لديه سواها مثلها. فما أدراه – ما أدرى ديك الجنّ! – أنْ ليس لذلك العطار المشؤوم قارورة سواها مثلها، وأنّ ابن عمّه "أبا الخبيث" أو "ملك الموت"[1]، كما سمّاه أيضاً، لم يلاينه ولم يحرص على بيعه هذه القارورة إلاّ لتدبيرٍ سافل دبّره؟

قالت له دلال:

– ومن أين، يا سيدي، اشتريت هذا العطر اللعين؟

ولكنه ردّ على سؤالها بسؤال. قال لها:

– يا دلال، هل رأيت أحداً قصد هذه الدار فاتصل ببكر مدة غيبتي في السلمية؟

فوجمت الجارية تكدّ ذاكرتها كدّاً مرهقاً لشعورها بالبديهة إزاء هذا السؤال أن أمراً عظيم الأهمية يتوقف على جوابها. ثم قالت بخيبةٍ وجزع:

– كلا يا سيدي! ولكني أسأل الجواري.

ومضت إلى إحدى الغرف حيث كان سائر الجواري قد اجتمعنَ وأطفأنَ السرج وقبعنَ في قفص من الذعر والارتياع. ثم رجعت إلى سيّدها منقطعة النفس تقول له:

---

١ لديك الجنّ في ابن عمّه بيت يقول فيه:

وكم إذا ما رأوك يا ملك الموت لهم من أنامل خصره!

والخصرة معناها الباردة.

– بلى، بلى! إن إحدى الجواري رأت ياسراً يدخل الدار وينفرد ببكر، ولكن سرعان ما خرج.

فعصب ديك الجنّ رأسه بكفيه، ونظر إلى أعلى لينهار مختلجاً بالبكاء عند قدمي ورد.

... بعد لحظة أحسّ بدلال تنحني فتلتقط سيفه عن الأرض، فقال لها بين جهشاته المتقطعة:

– أحسنت. خذيه عني، واقتليني به.

أجابته:

– كلا، يا مولاي. أنا أدري لمن سأحتفظ به!

ومرّ في ذهن الجارية، وهي تنصرف إلى جثة بكر في الساحة، شبح بغيض يتلوه شبح آخر، تقع على رأسيهما هذه الدماء!

كوبان من خزف وشعر يبكي

أكان ديك الجنّ يدري ما يفعل وهو يخرج من حمص بعد الفاجعة فيسلك الطريق إلى دمشق – كما تقول بعض الأخبار في تاريخ حياته؟ أكان يعي أن أهل ورد ضجوا به وأن الوالي تحرّك لمطالبته بما سفك من دماء، فرأى أصحابه أن يحوّلوه عن الأنظار ريثما يستصدر له صديقه الباقي في السلمية، أحمد بن علي الهاشمي، عفواً وأماناً؟

كلا!.. بل إنما رحّب الشاعر بهذا الرحيل عن داره وعن مدينته العزيزة بدافع ليس هو الفرار من طريق الوالي، ولكنه الفرار من نفسه ومن موضع الجريمة ومسرح الفاجعة، لعله يجد سبيلاً إلى النسيان الذي يبتلع الأشياء!

إلاّ أن نفس الشاعر لزمته فلحقت به في سفره تحمل معها صورة الجريمة ورسم الفاجعة، وظل موضع الجريمة يلفته إليه وظلّ مسرح الفاجعة من ورائه يناديه بالرجوع.

فعاد ديك الجنّ أدراجه. عاد من دمشق إلى حمص. وتذكّر يوم رجوعه بالأمس من السلمية وقد نفض كفيه حديثاً من تراب هذا الصديق الحميم الذي انسلخ عنه وعن الدنيا: جعفر بن علي. لكنه

ما إن عاد تلك العودة المشؤومة، حتى غمس كفيه في دم زوجته ودم غلامه، ليحملهما من ثم - بعد مطل طويل - إلى القبر وينفض عن كفيه التراب من جديد.

تراب! تراب!

فما أوسع سلطان هذا التراب. الأبدان، بضةً أو عجفاء، إلى تراب. والقلوب وما يموج فيها من مراغب ومكاره إلى تراب.

أفلا حيلة في هذا التراب الذي يفتّ الحياة ويحوّلها إليه؟ أفلا مردّ من التراب لورد وبكر، وقد دفع بهما إليه في نضارة الشباب، جنوناً بالغيرة وانجراراً بالإفك والزور، حتى عمق فراغ وجوده إلى لا قرار وأحاطت به الوحشة إلى غير مدى؟

وانثنت بديك الجنّ ذاكرته إلى خزّافه الذي أصبح يتصوّره الآن فيلسوفاً جاداً، لا ظريفاً وحسب. فقد وفّق هذا الخزاف إلى خير حيلة للإنقاذ من التراب وسلطانه الواسع القاهر... التراب يفت إلى عنصره هذه الأجسام والأفئدة، فيعصي الخزاف التراب، يعجنه ويطوعه لما يشاء من القوالب والصور. فلو كان لديك الجنّ إذن تراب ورد وبكر لحمله إلى هذا الخزّاف فأعاد له حبيبيه إلى صورة من صور الوجود، إلى كوبين مثلاً يترعهما بالخمر، فيجلس بينهما يرشفهما رشفاً حتى أبعد غايات السكر وما يحيي فيه السكر من ذكريات يملأ بها هذا الفراغ الذي يطويه!

لكن كيف السبيل والأيام لم تمضِ بعد على دفن ورد وبكر، والتراب مع سلطانه القاهر لم يستطع بعد أن يأكلهما في جوفه؟

وإذا بديك الجنّ في ليلةٍ من لياليه الموحشة المؤرقة يضيء فانوساً،

فيخرج وحيداً برفش ومعولٍ وزنبيل إلى قبري ورد وبكر بين القبور، حتى إذا وضع عنه حمله هاجَ به الشعر فوقف بالعراء على ثرى هذه المرأة الحبيبة المظلومة يناجيها بإنشادٍ أقرب إلى النشيج:

أَساكِنَ حفرةٍ وقَرارِ لَحد،
مفارِقَ خُلَّةٍ من بَعْدِ عَهْدِ!
أجِبْني إنْ قَدَرتَ على جوابي
بحقِّ الودِّ كيفَ غَدَوتَ بَعدي؟
أمَّا واللهِ لو عايَنتَ وَجدي
إذا استَعْبَرتُ في الظَّلْماءِ وَحدي
وَجَدّ تنهّدي وعَلا زَفيري
وفاضَتْ عبرتي في صَحنِ خَدّي
إذَنْ لَعَلِمْتَ أنّي عَن قريبٍ
ستُحْفَرُ حُفرتي ويُشَقُّ لَحْدي!
ويَعْذُلْني السَّفيهُ على بُكائي
كأنّي مُبتَلىً بِالحُزنِ وَحدي
يقولُ: قَتلتَها سَفَهاً وجَهلاً
وتَبكيها بُكاءً ليسَ يُجدي!
كصيّادِ الطُّيور له انْتحابٌ
عليها وهو يَذبَحُها بِحَدِّ!

فيرتعش كهف الليل لأصداء إنشاده المتجاوبة، ويطرق الشاعر لحظةً منتظراً أن يختلج الثرى أو تنبعث منه في أذنيه نأمة... إلى أن يفطن لقصده من هذه الزيارة الغريبة، فيتناول معوله ويمضي في حفر القبرين، بكدٍّ ككدّ فلاحيه، غير مبالٍ بجهدٍ أو برائحة، وينقل ما

استطاع من بقايا الجثتين إلى الزنبيل، ثم يطمر القبرين ويرجع أدراجه شبحاً منفرداً سرياً عجيباً يخطو في حلك الليل مقوّس الظهر يتبع هذا الضوء المرتمي من الفانوس أمامه على تعاريج الطريق.

... وأفاقت جواري ديك الجنّ تلك الليلة على نارٍ يجتهد في إضرامها في مرجلٍ كبير من نحاس أخرجه إلى باحة الدار. والنار تغالب دخاناً كثيفاً السواد فتّاك الرائحة ينبعث معها من المرجل. والشاعر لا يفتر يلقم النار حطباً، ومحياه الواجم يغيم مع الدخان وينجلي مع إشراق اللهب، تبصّ عليه قطرات العرق، حتى تلاشى الدخان وزالت الرائحة وماتت النار، فليس إلاّ حفنة من رمادٍ سخين أخرجها ديك الجنّ على رفشه ضنيناً بها أن تسقط منها على الأرض حبة!

وسألته دلال ما يصنع. فانتهر الجواري جميعاً بإشارةٍ ساخطة. فعدن إلى النوم.

وفي الصباح انطلق ديك الجنّ من داره بصرّة من رماد... كان يقصد خزّافه!

ثم انطلق بعد أيام فعاد بكوبين من خزف، رماديَي اللون، يحملهما برفقٍ ورقةٍ ويخاطبهما كأنهما شيء يعي ويفهم ويحس ويتألم.

قال ديك الجنّ لأحد الكوبين: أنت كن هنا عن يميني. وقال للآخر: وأنت فكن هنا عن شمالي. واتخذ مجلسه بين الكوبين، ودعا بالإبريق فأترعهما خمراً. وأبى منذ ذلك اليوم أن يرشف إلاّ منهما هذه الخمر التي استأنف شربها في إسرافٍ وغلوٍّ تجاوزا كل ما عُهد فيه من قبل.

وأصبح الشاعر، على سخائه وبذله بالأمس، أكثر سخاءً وبذلاً في الولائم يعقدها لصفوة الخلان ليل نهار، جالساً بين الكوبين الرماديين ينهل منهما نهلةً إثر نهلة – وكأنه مصابٌ بالعطش الأبدي! وأصبحت له شهوةٌ جامحة إلى تبديد أمواله، إذ أدرك ما كان يحرّك نفس ابن عمّه يوم إن سعى في تلك المؤامرة الدنيئة الآثمة، فطعنه في طمأنينة ضميره وصميم سعادته تلك الطعنة القاتلة. أفما كانت ثروته محور همّ ابن عمه؟ وإذن، فلينفق هذه الثروة إنفاقاً بحساب وغير حساب، حتى لا يبقى منها فلس، وحتى يموت بأسفه وغيظه عليها هذا الشحيح اللئيم الذي مسخ الإنسان فيه حبّ الدينار، فبرزت له، على ما يدّعي من تقوى وأمانة للدين، أن يهيئ لجريمة نكراء هائلة.

وهكذا راح موكب الأيام يزحف بديك الجنّ زحفاً ثقيلاً بطيئاً في مسافة من الزمان قاحلة محرقة. لقد ارتأى في مطلع حياته أن الطرق كلها تقود إلى غير غاية. فحاول، بعد إذ ألغى الغاية، أن يزين الطريق بما ظنه أجمل شيء وأبهج شيء، لكنه ما لبث أن عدم أيضاً هذا الجمال وتلك البهجة – لولا ما تبقى في طريقه من واحات متقطعة: خمر وشعر وغناء وذكريات تطيف مقترنةً بهذين الكوبين اللذين ينشر عليهما سكر الشاعر ووجده غشاءً هفهافاً رقيقاً موّاجاً، يموج معه خيال ورد وخيال بكر، يبتسمان له أو يلحظانه بقسوة أو يهمسان معاتبين، حتى ليسمع نبرهما أو يحسّ أنفاسهما كأنهما ما زالا في ذلك الوجود الحي من لحم ودم وشباب!

ولكم من مرّة خاطب الشاعر ورداً في خيالها المتموّج أمام عينيه منبثقاً من الكوب:

– يا ورد اغفري لي، اغفري لي!

أما خيال بكر فكثيراً ما قال له:

– لقد أكثرت المشي في ساحة الدار، وأطلت النظر إلى تلك النافذة، ليتني لم أجمعك بورد فتقع عليها عيناك! وليتك أسرعت في الزواج من دلال!

... وتعلق ديك الجن بالشعر والغناء تعلقاً التحم به التحاماً. غير أنه أصبح لا ينظم الشعر إلاّ راثياً باكياً، وأصبح لا يشتهي الغناء إلا كئيباً ناحباً. فإذا خرج إلى الميماس انتحى غيضةً يكثر فيها الحمام فأقام يصغي إلى أصواتها مبلسماً جرح روحه بهذا الهديل الشجي، متعجباً من أين لتلك الطيور الإحساس الذي يجاوب إحساسه، مردّداً هذه الأبيات التي تسيل بنغمٍ كئيب:

حمائمُ وُرْقٌ في حِمى وَرَقٍ خُضْرِ
لها مُقَلٌ تُجريِ الدُّموعَ ولا تَجْري!
تَكَلَّفْنَ إسعادَ الحزين إذا بَكى،
وإنْ كُنَّ لا يَدرينَ كيفَ جَوى الصَّدْرِ
لها حُرَقٌ لو أنَّ خَنْساءَ أعْوَلَتْ
بهنَّ لأدَّتْ حقَّ صَخْرٍ إلى صَخْرِ
فقلتُ لنفسي: ها هنا طلبُ الأسى
ومَعْدنُهُ إنْ فاتَني طَلَبُ الصَّبْرِ
ظَللنا ولو أُعطي المُنى لَصحبتها
حَماماً، ولو تُعطى المنى لروَتْ شعري!

ولقد شاء مرّة أحد المغنين ممن يحضرون مجلسه أن يبدّل هذا

الجوّ المأتمي الفاجع، فغناه بأبيات قديمة له:

انظرْ إلى شَمْسِ القصورِ وبَدْرِها
وإلى خُزاماها وبَهجةِ زَهرِها
لم تَبْلُ عينُك أبيضاً في أسود
جَمعَ الجَمالُ كوجهِها في شَعرِها
وَرديَّةُ الوَجَناتِ يَختبرُ اسمَها
منْ ريقِها مَنْ لا يُحيطُ بِخُبْرِها
وتَمايَلَتْ فضَحِكتُ منْ أردافِها
عَجَباً، وَلكنِّي بَكَيْتُ لخَصرِها
تَسْقيكَ كأسَ مُدامَةٍ منْ كَفِّها
وَرديَّةٍ، ومُدامةً من ثَغرِها!

فأصغى ديك الجنّ إلى عذوبة الألحان والألفاظ، وما يطفو معها من صور زاهية حلوة، ولكن وجهه انطبع بشقاءٍ عميق فصاح:

– أيها المغني، ذلك شيءٌ كان! غني اليوم بقولي:

يا طلعةً طَلَعَ الحِمامُ عليها
وجنى لها ثمرَ الرَّدى بيدَيها
روّيت من دمِها الثَّرى ولطالما
رَوَّى الهَوى شَفَتَيَّ من شَفَتَيها
حكّمت سَيفي في مجالِ خناقِها
ومَدامعي تَجري على خدَّيها
فوحقِّ نَعلَيها وما وَطِئَ الثَّرى
شيءٌ أعزُّ عَلَيَّ من نَعْلَيها

ما كان قَتْليها لأنِّي لم أكُنْ
أبكي إذا سَقطَ الغُبارُ عليها
لكن ضَنَنتُ على العُيون بحُسْنها
وأَنِفْتُ مِنْ نَظَرِ الحَسودِ إليها!

فغنّاه المغني بهذه الأبيات التي تجلو عمق إحساسه بألم الفاجعة ولوعة الحرمان، وتردّد صدى ضميره النادم الثائر الذي يحاول تبرير نفسه أمامه بقوة الغيرة، ويحاول تبرير الغيرة بقوة الحب.

واجتمع لديك الجنّ مقدار من هذا الشعر الباكي الذي تهبّ منه رياح الندم ويستشفع لجريمة قتل الحبيب بشافع الغيرة وللغيرة بشافع الحب. من ذلك قوله:

أشْفَقْتُ أنْ يرد الزَّمانُ بغَدرِه
أو أُبتلى بعدَ الوِصالِ بهَجْرِه
قَمرٌ أنا استَخرَجْتُه من دَجْنه
لَبَلِيَّتَي وَجَلَوتُهُ مِنْ خِدْرِه
فقَتَلتُهُ وله عَليَّ كَرامةٌ
ملْء الحَشا وله الفُؤادُ بأسرِه
عَهدي بِه ميتاً كأحسَنِ نائم
والحُزنُ يَسَّفَحُ عَبْرَتي في نَحْرِه
لو كان يَدري المَيْتُ ماذا بَعْدَهُ
بالحيِّ بَكى لَهُ في قَبْرِه
غُصَصٌ تكادُ تَفيضُ منها نفسُهُ
وتكادُ تُخْرِجُ قلبَهُ من صَدرِه!

وربما اكتفى بالحوم على قبر حبّه الذبيح، وعزف أنغام حزنه دون أن يتطرق إلى معنى آخر فيقول:

بأبي نَبَذْتُكَ في العَراء المُقفرِ
وسَتَرتُ وجهَكَ بالتُّرابِ الأَعفرِ
بأبي بَذَلتُك بعدَ صَوْنٍ للبلى
ورَجَعتُ عنكَ صَبَرْتُ أمْ لَمْ أصْبِرِ
لو كنتُ أقدرُ أن أرى أثَرَ البلى
لتَركتُ وجهَكَ ضاحياً لم يُقْبَرِ

أو ربما خرج عن ذلك إلى رواية قصة هذا الطيف، طيف ورد، وطالما أقبل عليه من القبر إلى فراشه في ساعات نومه المضطرب القلق، فقال:

جاءتْ تزورُ فراشي بعد ما قُبِرَتْ
فَظَلْتُ أَلْثُمُ نَحراً زانَهُ الجِيْدُ
وقلتُ: قُرَّةَ عَيني قد بُعِثْتِ لَنا
فكيفَ ذَا وطَريقُ القَبْرِ مَسْدودُ
قالتْ: هناكَ عِظامي فيه مودَعَةٌ
تَعيثُ فيها بناتُ الأرضِ والدُّودُ
وهذهِ الروحُ قد جاءَتْكَ زائِرَةً،
هذي زيارةُ مَنْ في القَبرِ مَلحودُ!

وبكل هذا الشعر كان يطلب ديك الجنّ أن يُغنّى وهو في مجلسه

الدائم بين ذينك الكوبين الخزفيين، الرماديي اللون، يأبى أن تمسّ الخمر شفتيه إلا منهما، ويفني أيامه ولياليه، مفنياً نفسه في هذه الأيام والليالي، الزاحفة به في مسافة بقيت من العمر، جرداء، لولا واحة الذكريات، وواحة الشعر الذي كأنما كُتب عليه فيه البكاء بعد اليوم: بكاء على الشهيد الحسين في كربلاء وبكاء على صديقه في السلمية وبكاء على هذا الحب الذي عصفت بلذته وبهجته غيرةٌ ناحرة ونذالةٌ في بعض البشر المتآمرين على سعادة البشر.

انطفاء

قبل أن يمتد الشوط بديك الجنّ حتى السنة ٢٣٥هـ (بين ٨٤٩ و ٨٥٠م)، قبل أن يصبح شيخاً يوقر ظهره حمل أربع وسبعين سنة هجرية وإحدى وسبعين سنة ميلادية، فينطفئ آخر انطفائه شاعراً فقيراً منسياً، أو كالمنسي، في السنة الثانية لخلافة المتوكل العباسي في بغداد أو سامرا[١] – انعقد على نحو ما كان ينعقد في دار الشاعر مجلس لم يكن فيه أثر من ترف مجالسه الأولى. فليس ثمة سوى حصير يقعد على مفرش فوقه شيخ كأن اللون الرمادي في هذين الكوبين الخزفيين عن يمينه وشماله قد سرى إلى شعر رأسه على ما بقلبه من جمر طويل الاحتراق.

وحضر هذا المجلس صاحبٌ لديك الجن، متأدّبٌ، صحبه دهراً، اسمه – فيما روت الأخبار – عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي.

قال هذا الصاحب بعد أن أدار عينيه فيما حوله وحول الشاعر من مشهد بؤس وفاقة:

– أمّا وقد صرت إلى ما صرت إليه الآن، فلعلك تقرّ أنك فرّطت

---

١ كان المعتصم سنة ٨٣٦م قد نقل مقرّ الخلافة إلى سامرا تحاشياً للمصادمات بين حرسه التركي وأهل بغداد.

بحياتك وموهبتك تفريطاً ما كان يجوز. لو عملت بنصيحة أبي نواس، يوم أن مرّ بك هنا في حمص، فذهبت إلى بغداد، لجمعت مالاً، ثم لجعلت لنفسك شأناً غير شأنك اليوم. فإنك أصبحت تعيش مهملاً، شعرك وقفٌ على النادبات في المآتم، ولا بدّ أن يلحق بذكرك ثم بشعرك هذا الإهمال، مع أنك سيّد من أسياد القول وفاتح من فاتحي هذه الطريقة الشامية، تسبك الشعر سبك سلاسل الذهب من لفظٍ صافٍ مختار تؤلفه على الرنة المطربة وتحليه بصنعة البيان والبديع في غير ما كلفة زائدة، وتجلو به أنيق الصور وغريبها، وتتنفس فيه عن صدق عاطفة. وهذه أبياتك تشهد لك، يكفيك منها قولك في الكأس وساقيها:

فقامَ تكادُ الكأسُ تَحرقُ كَفَّهُ
مِنَ الشَّمْسِ أو مِنْ وَجْنَتَيه استَعارَها!

وقولك في تصوير الجمال:

دِعْصٌ يَقِلُّ قَضيبَ بانٍ فوقَهُ
شمسُ النَّهارِ تَقِلُّ ليلاً مُظلِما!

فهل بزّك في هذا شاعر كذلك الفتى الجاسمي من حوران؟ وقد عرّج عليك في أول نشأته، فرأيتك تخرج له أوراقاً كثيرة من شعرك فتدفع بها إليه وتقول له: يا فتى تكسب بهذا واستعن به على قولك. ومكثت أنت في حمص، ومضى هو في الآفاق، فإذا به بعد زمن يصبح أبا تمام: يملأ بلاط الخليفة المعتصم ويملأ الأندية، ويخمل

الشعراء بشهرته ويقطع رزقهم بما حكره من جوائز! فلما مات كان متولي بريد الموصل، فرثاه وجهاء الدولة وفيهم الوزير عبد الملك بن الزيات والحسن بن وهب! ورثيته أنت. فما كان يعوزك أن تكون إياه يا رجل، حتى اعتزلت هذا الاعتزال ووقعت في هذا الحب الذي أدى بك إلى البلية وأجرى شعرك دمعاً وعويلاً؟

وقد صبر ديك الجنّ على خطاب صاحبه وأصغى إليه بمقدار ما كان متاحاً له أن يحشد لبّه للإصغاء. ثم حان الجواب، فتردد الشاعر، لكنه عاد فأكره نفسه على الكلام: أحسب أن ذلك شيءٌ فرغنا منه. ما كنت أرضى أن أنزل شعري منزلة الزلفى في المواضع التي عزمت أن أتحاشاها: بغداد، الدولة، البلاط، أعتاب الولاة. وقد مدحت، وأنت تعرف قولي الذي أعجب الناس:

نغدو لِسَيِّدنا نُحْصي الحَصى عَدداً
في الخافِقينِ ولا تُحصى فَواضِلُه!

غير أني لم أمدح إلاّ يسيراً. ولم أنافق. ونحت كثيراً، لكن لنفسي وعلى نفسي كان نوحي. ويوم رثيت أبا تمام لم تدفعني ولايته بريد الموصل، ولا همّتني وجاهته عند المعتصم أو الوزير ابن الزيات أو سواه.

والتفت ديك الجنّ كعادته إلى الكوب عن يمينه فحمله إلى شفتيه، ثم إلى الكوب عن يساره.

واستغرق في الوجوم مبتعداً عن حديث هذا الموضوع الذي حاول أن يثيره هذا الصاحب الزبيدي على غير جدوى.

... استغرق ديك الجنّ في وجومه وطال استغراقه. وأصبحت

تلك هي عادته خلال تلك الأعوام الطويلة التي استنفدت عمره ولم تستنفد تفكيره الدائم في تلك الفاجعة التي كان هو بطلها وكان أيضاً آلتها، وكان إلى ذلك ضحيتها الحية المعذبة!

إن بعض الأخبار لتروي لنا كيف أُتيح للشاعر بسفره الوقتي إلى دمشق ووساطة أحمد بن علي الهاشمي، أن يتحاشى محاسبة السلطة له على ما بدرت به يداه.

ومع ذلك، فالحق أن ديك الجن لم ينجُ من المحاكمة في قضيته الفاجعة. بل لقد ظل هو يعقد بنفسه هذه المحاكمة حتى الرمق الأخير من حياته.

هذا ابن عمّه جان دفعته إلى الجناية وانتهاك الحرم عبادة الدينار. وهذا ياسر جان هو الآخر، ساقته إلى الجناية شهوة حيوان شذّ فيها. وهذه وردٌ – آهٍ! لو سمع منها فأقصى بكراً عن الدار، إذن لما أمكن حبك المؤامرة الملعونة. وهذا بكر ما كان أغناه عن التبختر في ساحة الدار والنظر إلى تلك النافذة.

على أن ذلك كله ليس بشيء عند التأمل والتروي. فديك الجنّ نفسه هو الذي قتل! هو الذي صدّق الناس مع أنه نصح لورد يوماً أن من صدّق الناس مات بأشدّ الغم. وهو الذي قسا في العقاب على الحبيب مع أنه القائل:

كيفَ الدُّعاءُ على مَنْ جارَ أو ظلما؟
ومالكي ظالمٌ في كلِّ ما حَكَما!
لا آخَذَ اللهُ مَنْ أهوى بجَفْوَته
عَنّي، ولَا اقْتَصَّ لي مِنْهُ ولا ظَلَما!

فقاتل الله الإنسان كم يناقض نفسه بنفسه! ثم أنه هو الذي غار! غار غيرةً مجنونةً مفترسة. فنحر وانتحر. وهو عبثاً يستشفع لهذه الغيرة بقوة الحب وشدة الهيام. فعلى من غار، وممّن غار؟ – حتى لو صحّ أن ورداً وبكراً تبادلا عشقاً بعشق، فكيف يغار امرؤ من حبيبٍ يتملكه حبه، على حبيب يتملّكه حبه؟

وبعد – وهنا السؤال الذي كان يفرّ منه ديك الجنّ كلما عرض له، أو يفرّ من نفسه! – هل أحب هو بكراً الحب كله بما فيه من رغبة جسد في جسد؟ إن أبا نواس يوم أن مرّ به في حمص اشترط عليه في الغيرةً أن يطالب نفسه بالأمانة التي يحرص أن يُقيّد بها عنق سواه. وبهذا يقضي العقل ويحكم العدل.

ولكن برغم العقل والعدل: ماذا يفعل بشريّ أمام جموح العاطفة، بل عصف الأنانية؟

وعند هذا الحدّ كان يقف ديك الجنّ ليدور في هذه المحاكمة الخفيّة بينه وبين نفسه، كأنما يدور في حلقة مفرغة... إلى غير غاية... كطريقه التي اختارها في الحياة، حياته التي أحسها فارغة فملأها بالخمر والشعر والجوع إلى اقتناء الجمال جوعاً طبيعياً وشاذاً، حتى تعقّدت عليه العواطف والميول هذا التعقيد، وحتى بقيت حياته في حكم التاريخ فارغة لولا رقة شعر وغرابة حكاية وروعة عبرة.

... فكبيرٌ هو ديك الجنّ ومسكين!

كبيرٌ بأنفته أن ينصاع لتقاليد زمانه من بذل شعر وتملّق وإذلال نفس! ومسكينٌ أن لا يجد ما يشغل به الحياة غير الفرار إلى شبكة من العواطف المتعقدة، نحر فيها أعزّ ما كان عليه في الوجود – وكأنه انتحر!